

## فلاسفة المقاومة

تُقابل أفكار ابن رشد في العالم الإسلامي كما قوبلت أفكار توما الأكويني في الغرب، وينتصر العلم في الغرب ويفشل العلم العربي الذي أمد الغرب بأساسيات التطور العلمي في أن يصل كما وصل العلم الغربي إلى العلم الحديث.

وإذا كان الفكر الإسلامي الذي اضطلع به ابن رشد وعمل على سجنه، هو الفكر الذي مازال مسيطراً حتى الآن، ومن المحتمل أن يكون هو السبب فيما نحن عليه من كساد فكري وثقافي، فلماذا إذن لا نتسلح بأساليب المقاومة لأسباب فشل العلم العربي وفشل فلسفة التنوير في المجتمع العربي الإسلامي؟

وأنا على يقين أن المعركة مع الفلاسفة في الغرب لم تؤثر بتاتا في تقدم العلم الغربي وتطوره إلى العلم الحديث، فإذا كانت الكنيسة قد وقفت ضد الفلسفة التي خشيت منها على سبلطانها، فإن فيلسوفاً كبيكون وقف هو الآخر ضد الفلسفة اليونانية القديمة، وعلى مدى الفترة من بيكون وحتى الآن جاء عدد كبير من الفلاسفة ينتقدون الفلسفة القديمة ويصفونها بأنها كلام فارغ، وفي المسيرة العدائية للفلسفة الميتافيزيقية جاء هيوم وأوجست كنت، وتعرضت فلسفة الحدائث لقد شد يد على أيدي فلاسفة ما بعد الحدائث.

وإذا كانت الفلسفة تسير في مسار متذبذب يتردد الباحثون فيه بين القديم والحديث، فالعلم على العكس يأخذ مساراً تراكمياً، تتكون فيه المعرفة على أساس المعرفة الموجودة فعلاً، نتطلع إلى الأمام دائماً ولا يلتفت إلى الوراء أبداً، حتى قيل إن العلم ليس له ذاكرة، مما

حدا بالمهتمين بالشئون العلمية إلى الحديث في إحياء تاريخ العلوم.  
ونحن إذ نتكلم عن فلسفة المقاومة، واستخدمنا كلمة فلسفة في  
عنوان هذا الكتاب، نعطي الفلسفة لونهاً مختلفاً عن الفلسفة القديمة،  
ونحدد الرؤية الفلسفية في كل ما يتصل بالتقدم العلمى والتقنى، أى في  
كل ما يتصل ببناء القوة فى المجتمع، ونحن ندرك تماماً أهمية دراسات  
الظروف الاجتماعية وأثرها فى تطور عملية التقدم وبناء القوة، والمسألة  
مترامية الأطراف ومتشابكة الأبعاد، كل طرف فيها يحتاج إلى دراسة  
وكل بعد فيها يحتاج إلى عناية حتى تتحدد بكل دقة كل الأطراف وكل  
الأبعاد.

إن الكنيسة كانت ترجع كل شئ إلى الدين، أما ابن رشد فدعوته  
الأساسية كانت فى الالتجاء إلى العقل، ولكنه لم يهمل الدين أبداً، وهو  
بذلك لم يكن علمانياً خالصاً، والكنيسة المتزمتة هى التى رفضت كل  
دعوة إلى العقل أى إلى العلم.

وقد وجد ابن رشد أن واجبه أن يفهم الإسلام على نحو عقلى، ومن  
هنا فقد اتبع منهجاً علمياً فى التأويل، لقد وجد ابن رشد أن المجتمع  
العربى الإسلامى تمزقه انقسامات الفرق والشيع والمذاهب الاعتقادية،  
وتحواله إلى جماعات بشرية هشة، وإن توحيد المسلمين لا يكون إلا  
بإصلاح عقليتهم وتوحيدها بالرجوع إلى أصول ثابتة يتفقون عليها ووجد  
أن الأصل الأول هو القرآن الكريم وهو يدعو إلى النظر العقلى والتفكير  
فى قضايا الإنسان والقضايا الميتافيزيقية الكبرى، والأصل الثانى هو  
فلسفة أرسطو الذى بدت لابن رشد أنها تمثل قمة العقلانية بمنطقها  
المتناسك وبنائها للعلم على أساس الكليات وقد رأى ابن رشد أن العامة  
ترى أن الأصل الثابت هو القرآن ولا حاجة للتأويلات الخاطئة التى جاء  
بها زعماء الفرق والمذاهب وهى كلها عند ابن رشد تأويلات خاطئة شئت  
أذهان الخاصة عند المسلمين - والأصل الأول الثابت وهو القرآن يجب

أن يفهم فهمًا عقليًا وتزال عنه كل التأويلات الخاطئة التي لحقته ويجب أن يعاد إلى نقائه الأول - والفلاسفة يقدرّون وحدهم على فهم باطن القرآن بما يملكون من منهج عقلي صارم يتأولون به القرآن عند الضرورة تأويلًا صحيحًا .

إن مناقشة ابن رشد ومسألة التأويل موضوع شائك لحد كبير، دعونا نمر فوقه سريعًا لنصل إلى فيلسوف آخر تظهر في تعاليمه روح المقاومة أكثر وضوحًا، ويأتي هذا الفيلسوف هذه المرة من الصين.

يقول متشيوس<sup>(\*)</sup> إن الحاكم الذي يفقد تمامًا رضا شعبه لا يمكن أن يعتمد عليه ليقاوم من أجله وقت الحرب - ومن ناحية أخرى فإن الحاكم إذا عامل شعبه معاملة طيبة فسيؤيده في ولاء تام حتى لا يقهر. وهنا نجد أن الكنفوشيوسيين كان لهم تأثير جد فعال إذا ازداد الاهتمام بعامة الشعب باعتبارهم جنودًا، وكانوا أحيانًا يرفضون ببساطة أن يحاربوا حتى يجدوا أن الطريق الوحيد للتغيير هو الحرب.

وقليل من الفلاسفة اهتموا اهتمام متشيوس بالاقتصاديات، والاقتصاد له علاقة وثيقة بالأخلاق، إذ أكد أن الشعب الجائع لا يمكن أن تتوقع منه أن يلتزم بالأخلاق، وكان يؤمن بأن الشعب يجب أن تتاح له الكفاية الاقتصادية، ولكنه دافع أيضًا عن أن الشعب يجب أن يتعلم حتى ترتفع أخلاقياته فوق مستوى الاستجابة البسيطة لمتطلبات الزمن.

لقد أيد متشيوس في براعة إصرار الكنفوشيوسيين على الاهتمام بالشعب، لقد كان حازمًا بالنسبة لهذه النقطة وأكد أنه إذا ما فشل حاكم في تحقيق الرفاهية لشعبه فمن الواجب أن يعزل وكأنه هنا يتفق مع روسو ومقولته عن العقد الاجتماعي.

وكان نظام كنفوشيووس في الأخلاق بل في الحقيقة في معظم فلسفته يبدو أنه قائم على إدراك لما عليه طبيعة الكائن البشري، فلم يقع

(\*) حكيم أتباع كنفوشيووس.

قط في خطأ من الخطأين اللذين كان يقع فيهما المرء أحياناً في هذا المجال؛ فمن ناحية لم يفكر في الفرد ككائن مستقل تمام الاستقلال عن المجتمع، كما أنه لم يفكر في المجتمع كضرب من الكيان الميتافيزيقي سام تمام السمو عن الفرد حتى يصعب القول بأن الفرد موجود ما لم يكن مندمجاً فيه تمام الاندماج.

لقد آمن كنفوشيوس بأن الأشخاص مخلوقات اجتماعية مهمة، لقد كان على المجتمع إلى حد بعيد جداً أن يشكلهم إلى ما هم عليه، ومن ناحية أخرى مادام المجتمع لا يعدو أن يكون أكثر من تفاعل بين الأشخاص فإن المجتمع يشكله الأفراد الذين يكونونه بالصورة التي هو عليها.

إن الشخص الذي على خلق يجب ألا يكون عضواً لا اعتبار له، بل عضواً عاملاً في المجتمع، وإذا ما بدا له أن ممارسة العرف فيها فساد أو ضرر، فإنه لا يتخلى عن العمل به فحسب، بل يحاول أن يؤثر على الآخرين ليلبدلوا هذا العرف، وهنا تظهر روح المقاومة للتقليد والعرف إذا ما كان في ذلك الجمود والثبات ومعاكسة سُنَّة التطور التي تقول بالحياة الأفضل دائماً.

ومن المقرر أن العرف هو عصب المجتمع، فلو أن كل واحد منا أكل ونام متى وحيث يشاء واستخدم الكلمات التي ابتدعتها كأفراد لتعني ما نريد نحن شخصياً أن نعنيه لصار العالم مكاناً من الصعب العيش فيه، وقد استخدم كنفوشيوس كلمة (لى) لتدل على كل مركب في الاستعمال العرفي والاجتماعي أمده بضمون اجتماعي. وبهذا الارتباط فإن ما تقره الأخلاق واللياقة يعزز بعضه بعضاً، فنحن نعتبر أنه من الأدب، وليس من الضرورة أن يكون واجباً أخلاقياً، أن تكون مؤدباً مع كل فرد نحن على صلة به، ونعتبره واجباً أخلاقياً، وليس بالضرورة أن يكون التزاماً أدبياً، أن نعيد الممتلكات التي نجدها لأصحابها حتى ولم تكن على معرفة بهم.

وكان كنفوشيوس يعتبر أن الصقل العقلي قليل القيمة ما لم يكن مصحوباً بالتوازن العاطفي، وللوصول إلى مثل هذا التوازن العاطفي

اعتمد على التربية في ال (لى)، وكان يقول أن من الواجب أن ننظم تعليم الصبى عن طريق ال (لى)، فإذا ما أعد شخص على هذه الصورة لمواجهة العالم، فإن ما ناله من قوة يمكنه من أن يمسك بحق بمبادئه خلال أية محنة وفى مواجهة كل إغراء.

وقبل زمن كنفوشيوس كانت الكلمة تستخدم عادة إما فى هذا المعنى أو بمعنى طريق السلوك الذى قد يكون صالحاً أو طالحاً فى غير تمييز وبعد زمن كنفوشيوس استخدم كمفهوم تصوفى للدلالة على التركيب الأول للكون أو على شمول الأشياء كافة.

وهناك مفهوم آخر له أهمية أساسية فى فلسفته وفى تربيته وكان ذلك مفهوم الطاو (Tao) ويترجم عادة على أنه الطريق.

هذه الفكرة الأخيرة راجعة بصورة عامة جداً إلى استخدام كنفوشيوس للعبارة، وهناك فقرات قليلة فى المقتطفات الأدبية يبدو أنها تجعلها مقبولة، ولكن يمكن لهذه الفقرات أن يكون لها تفسير مختلف، ولم يكن الطاو فى نظره شيئاً صوفياً كما استخدمه الطاويون بعد زمن كنفوشيوس، الطريق دون كل الطرق الأخرى التى يجب أن يسلكها الأشخاص، وهدفه هو السعادة فى هذه الحياة هنا والآن لكافة الجنس البشرى، وتاماً كما تحمل ال (لى) معنيين: الأدب والأخلاق فكذلك الحال بالنسبة للطريق الذى يتضمن من ناحية: القانون الأخلاقى للفرد ومن ناحية أخرى نمط الحكومة التى يجب أن تصل إلى القدر الكامل المتيسر لرفاهية كل كائن حتى وإدراكه الذاتى.

لقد طالب كنفوشيوس أتباعه بأن يكونوا فى منتهى الحماسة، لقد كان ينتظر منهم بطبيعة الحال أن يكونوا على استعداد فى كل الأوقات لأن يضحوا بأرواحهم فى سبيل مبادئهم. وقد فعلوا ذلك، وعلى مدى القرون أخرج كنفوشيوس مجموعة ضخمة من الشهداء قدموا حياتهم دفاعاً عن الطريق، مات بعضهم كثوار هبوا للحرب ضد الطغيان، وكان هذا مصير

وريت كنفوشيوس نفسه في الجيل الثامن، وقد مات غيرهم على يد منفذى حكم الإعدام لأنهم تجاسروا على العمل بوصية كنفوشيوس بنقد أى حاكم مخطئ دون أن يخشوا أحدًا من أجل الصالح العام.

وفى مقاومة الفساد بنى كنفوشيوس فلسفة السياسة على أساس أن الحكومة يجب أن يكون هدفها رفاهية الناس أجمعين وسعادتهم، وكان يعتقد أن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تولى شئون الحكم أعظم الرجال كفاية فى البلاد، ومثل هذه الكفاية لا علاقة بها بالمولد أو الثروة أو المكانة وإنما هى خاصة بالخلق والمعرفة، وهما ثمرة التربية الحقة، لذا يجب أن تكون التربية منتشرة انتشارًا واسعًا حتى يمكن إعداد أكثر الرجال موهبة فى البلاد بأسرها.

وعندما مات كونفوشيوس عام ٤٧٩ ق م من المحتمل أنه كان هناك قلة لم تظن أن الرجل العجوز الذى يثير العطف قد مات لأنه قد أخفق، ومن المؤكد أن هو نفسه قد اعتقد ذلك، ومع ذلك فهناك قلة من الناس قد أثرت فى التاريخ تأثيرًا أكثر عمقًا من تأثير كنفوشيوس، ولكن الاستجابة لفكره مازالت باقية وفى الصين اتخذت أجيال اثر أجيال من تفكيره تفكيرًا شخصيًا لها، واليوم نلاحظ أن بعض المشيوعيين الصينيين يدعون بأن تفكيره هو تفكيرهم الشخصى. وفى الغرب كان تأثيره أكبر مما ندركه أحيانًا. كانت هذه هى الحال بصورة خاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ومن ثمَّ يقول «إيشفاين»، ولقد صار كنفوشيوس القديس الحالى لحركة التثقيف فى القرن الثامن عشر.

وإذا تطلعنا إلى سر هذه الاستجابة لبدأ أنه من المحتمل أن تكون قائمة على إصراره على سيادة القيم الإنسانية - فلقد أكد أن الحكمة هى معرفة الناس والفضيلة هى حب الناس.

ولعل ما هو أهم من ذلك ما يمكن دعوته «ديمقراطية التقليد» لقد كان عدد كبير من الناس على استعداد لأن ينادوا بأن من الواجب أن

يحكم الناس أنفسهم، ولكن كان هناك نسبة قليلة من الفلاسفة على استعداد أن يؤمنوا بأن الناس بوجه عام يفكرون لأنفسهم على النمط الذي يشير إليه الفيلسوف بلطف لأجل مصلحتهم، ولم يكن كنفوشيوس راغباً في وجوب تفكير الناس في أنفسهم فحسب، بل أصر على ذلك، لقد كان على استعداد لأن يساعدكم كيف يفكرون ولكن يجب أن يكتشفوا الإجابات بأنفسهم، لقد اعترف صراحة أنه هو نفسه لم يعرف الحقيقة ولكنه عرف طريق البحث عنها فحسب.

لقد آمن بأن الإنسانية يمكن أن تجد السعادة فقط في صورة مجتمع تعاوني لأناس أحرار، ولكن الناس لا يمكن أن يكونوا أحراراً بينما يتبعون إلى الأبد نجمًا أشار إليه رجل آخر. وقد آمن بأن من يقدم لهم نحت أسلوب الحقيقة الثابتة، مبدأ يمثل فقط التبصر الناقد للفردي يؤدي إلى خيانة ثقتهم، وهو لم يفعل ذلك قط، لقد قال: «إذا لم يسائل المرء نفسه باستمرار ما الشيء الصواب الذي يؤديه؟ فإنني لا أعرف في الحقيقة ما الذي سيلم به».

ومهما تكن فلسفة كنفوشيوس وطابعها الثوري ومعارضتها للاستبداد ودعوتها إلى الأخلاق، فإنه لم يقدر لها أن تحول من شعب الصين إلى قوة خلاقة ومبدعة أو تنهى حكم الطغاة المستبدين، ويظل الحكام الفاسدون يحكمون الصين، ويزداد حال الصينيين سوءاً، ويفرزها الأجانب، حتى قويض لها ظهور الشيوعيين، ومن الحكمة أن نقول إن هؤلاء قد استهلما الفكر الثوري في فلسفة كنفوشيوس، ونظموا صفوفهم، وكان هذا التنظيم الأداة الفعالة لنجاح الشيوعيين.

ولماذا نجح الشيوعيين؟ هل كان للثقافة الغربية في القرن الماضي أثرها في تغيير الصين هذا التغيير العميق، ربما كان في اعتقاد الصينيين منذ أمد طويل أنهم أكثر الناس ثقافة، وأكثرهم علماً وأنهم في الحقيقة وحدهم القوم الذين لهم أهمية على وجه الأرض.

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر أقرهم كثير من الأوروبيين على هذا، ولكن منذ أن بدا ضعف الصين واضحًا، صار معظم الأوروبيين يتطلعون إلى الصين على أنها شعب متأخر وشعب بدائى.

وفى حالة البؤس والازدراء التى عاشها الصينيون فى القرن الماضى تساءل الصينيون ماذا يمكن عمله؟ واستنزفت هذه المشكلة معظم نشاط الصينيين خلال القرن الماضى، وليس عجباً أن يسهموا إسهاماً بسيطاً نسبياً فيما هو جديد فى مجال النظرية الفلسفية الأساسية، فالرجل الذى يحترق منزله لا يجلس وسط لهب النيران يؤلف رسالة فى المنطق.

وقد حاول الصينيون أن يقابلوا تحدى الغرب بأساليب ثلاثة: أصر البعض على أن الأنماط التقليدية الصينية للحياة والفكر أسمى من كل ما سواها، وأن الصينيين يجدون أنفسهم فى مشكلة لا لأنهم كانوا محافظين تماماً، بل لأنهم لم يحافظوا على المثل العليا التقليدية، إذ لو أنهم حافظوا عليها لكانت الصين بالغة القوة ولتخلصت من مشاكلها، واتبع البعض طريقاً أكثر اعتدالاً، فبينما كانوا يؤمنون بأن الثقافة الصينية يمكن اعتبارها أساساً لتطوير الصين، كانوا يودون تعديلها كي تتمشى مع ظروف العالم الحديث، وأن يأخذوا بتلك الفنون الغربية التى ظهرت فائدتها، ومجموعة ثالثة أصررت على أن النمط التقليدى الكامل فى الصين للتخيم السياسى والاجتماعى والاقتصادى، لا يتمشى مع عالم اليوم وكل أسلوب الحياة والفكر يجب أن يتبدل.

ولكن معظم من درجوا من الصينيين على معرفة الغرب معرفة جيدة وأعجبوا لفترة بثقافة الغرب ما لبث أن زال وهمهم وساء ظنهم ومن الأمثلة الطريفة لذلك (ين فو ١٨٥٤ - ١٩٢١) فبعد أن درس فى جامعة أدنبره صار رائداً فى ترجمة المؤلفات الفلسفية الغربية إلى الصينية، فلقد ترجم كتاب لكل من ت. ه. هكسلى، وجون ستوروات ميل، وهربرت سبنسر، وأدم سميث، وغيرهم من الذين لعبوا دوراً مهماً فى إدخال

الفكر الغربى إلى الصين، ومع ذلك فبعد الحرب العالمية الأولى بدأ يفكر رغم هذا أن الصين أحسن منوالاً وراح يقول: لقد فسدت الثقافة الغربية تمامًا بعد هذه الحرب الأهلية، قيل ذلك عندما كتبت أسعد أن علماء مدرستنا القديمة يقولون إنه سيأتى يوم يمارس فيه كل البشر تعاليم كنفوشيوس، كنت أظن أن حديثهم هراء، ولكننى أجد الآن بعضاً من المع الرجال فى أوروبا وأمريكا يبدو أنهم يقترحون شيئاً فشيئاً من هذا الرأى .

ويبدو لى أنه فى خلال ثلاثة قرون من التقدم حقق الغرب أربعة مبادئ: أن يكونوا أنانيين وأن يقتلوا غيرهم، وأن يكون نصيبهم من الاستقامة قليلاً، وأن يشعروا بقليل من الخزى. كم هى مختلفة متباينة عن مبادئ كنفوشيوس ومتشيوس كالفرق بين السماء والأرض - وهى مرسومة لى يفيد منها كل فرد فى كل مكان.

وبرغم أن المصلحين بوجه عام صمموا على المحافظة على القديم، إلا أنهم لم يرغبوا جميعاً على الإطلاق فى أن يحطموا تراث الصين الثقافى، فمثلاً «صن بات - سن» الذى فعل أكثر من غيره للقضاء على الإمبراطورية قد أبقى بصورة واضحة على الملامح الصينية فى الدستور الذى اقترحه للجمهورية، ولقد أكد «ما نريده من أوروبا هو العلم لا الفلسفة السياسية، وأما بالنسبة للمبادئ الحقيقية للفلسفة السياسية فالأوروبيون فى حاجة إلى تعلمها من الصين».

وتراث الصين الثقافى الذى يضم على الأقل ثلاثة آلاف سنة من التطور التدريجى هو واحد من أقدم تراث فى العالم، ويبدو أن ذلك التراث إن لم يكن قد انتهى، فهو قد بلغ على الأقل نقطة التحول الثورى مع نفوذ الشيوعيين الصينيين فى سنة ١٩٤٩ - هذا على الرغم من أن الحزب الشيوعى الصينى لم ينظم نفسه إلا فى عام ١٩٢١ - ويعنى ذلك نجاحه السريع، وذلك نتيجة للانتفاضة الثورية التى قامت بها جماهير الصين رداً على الفاقة وعلى الاستغلال الاقتصادى.



## لنتقف أمام التهديد الأمريكى

فى كتابه بعنوان «اليابان يمكن أن تقول لا» يقول سننارو إيسهارو. فى حوالى عام ١٩٨٧ انتهجت الولايات المتحدة أسلوباً جديداً فى مواجهة اليابان، فنظراً للشعبية التى اكتسبها ميخائيل جورباتشوف فى الغرب ولانكماش التهديد المنبعث من إمبراطورية الشر أصبحت حملات التعريض باليابان أمراً متواتراً وأكثر حدة، ومن ثم أصبحت طوكيو مسرحية الموسم يصب عليها سياسيو أمريكا جام غضبهم، وبدلاً من استعراض الحقائق ووزنها تقدم الكونجرس صفوف المهاجمين وكان به مس من الجن وقام عدة شيوخ بتحطيم أجهزة تسجيل توشيبا بمطارهم على درجات الكابيتول، ولكم كان عملاً مخزناً.

ويجب ألا يخشى مسئولو السياسة الخارجية فى اليابان من هذا التهديد الساذج، فاليابان تسيطر على التقنية الراقية التى تعتمد عليها القوة العسكرية لكلا البلدين، ولسوء الحظ لم تستخدم اليابان ورقة التقنية بالمهارة المفترضة، على الرغم من امتلاكها القوة للجهر بالقول «لا» لأمريكا، فإن اليابان لم تجرب بعد هذا الخيار، فنحن أشبه بلاعب البوكر الذى يمتلك الورق الرابع ولكنه اعتاد على كشف أوراقه.

انتفض من التقيت بهم من المشرعين الأمريكين استياء حين فاجأتهم بالقول إنهم يفتقدون المصداقية، لأن الكونجرس يمضى فى سلوك ساذج يعكس الانتعاش والاستفراق فى الذات متجاهلاً بذلك أهداف الإدارة الأمريكية، ومضيت أضيف: ولعل قرار العقوبات الاقتصادية لأفضل مثال على ذلك، فلا يوجد مجلس تشريعى فى العالم يستحق هذا الاسم يصدر تشريعاً كهذا فما كان من هؤلاء المشرعين

سوى الانفجار في الضحك لمداراة ارتباكهم.

وعلى الرغم من ذلك على أن أقر بعد أن أدى النزاع، حول أشباه الموصلات بين الولايات المتحدة واليابان إلى تدهور الوضع إلى حد فرض العقوبات، أن السبب يرجع في ذلك إلى عدم رفض اليابان لمطالب الولايات المتحدة في المرحلة الحرجة، فذلك الرجل الوغد الذي يطاغى موافقاً عند كل منعطف كان ياسيرو ناكسونى رئيس وزراء اليابان السابق.

بعد فوز الحزب الليبرالى الديمقراطى الساقى فى انتخابات ١٩٨٦ . اندفع ناكاسونى فجأة وبتهور ليعد الولايات المتحدة بإمدادها بالتقنية العسكرية المتقدمة، وبدلاً من استخدام هذه السلعة الثمينة فى المساومة بصدد المطالبة بالتعامل بالمثل - رفض العقوبات على سبيل المثال - ضيع تلك الورقة الراححة دون مقابل - ربما قصد ناكاسونى من وراء ذلك الالتزام إسداء معروف لأمريكا لعلها تعترف يوماً بالجميل وترد العطاء، فقد كان ناكاسونى السياسى اليابانى الوحيد الذى يعنى تماماً ما يعنيه هذا الالتزام ومدى حاجة البنتاجون الماسة لمعدات تقنية معينة قابلة للاستخدام العسكرى.

بل لم تصرخ صرخة احتجاج يابانية واحدة سواء من الحزب الحاكم أو من أحزاب المعارضة، بل لم تلتقط قيادة الحزب الليبرالى الديمقراطى الحقيقى وراء تصرف رئيس الوزراء، ومما يدعو للأسف أن الساسة اليابانيين لم يدركوا بعد أهمية التقنية اليابانية المذهلة، على حين يعترض الخوف أحشاء الأمريكين، فالصدارة فى التقنية المتفوقة هى مصدر القوة العظيمة لليابان ولسبب أو لآخر، لم تستخدم بعد هذا المصدر بفاعلية واقتدار فى الساحة الدولية، لست أدرى علة لذلك، ربما يفوق الأمر طاقتى على الفهم، فعلى الرغم من تلك الميزة المذهلة يحج رؤساء وزراء اليابان إلى واشنطن لتقبل كل رغبات البيت الأبيض، إلى

من أجاز بالشكوى من السياسة الخارجية لليابان؟

لقد أدرك ناكاسونى مدى تفوق التقنية اليابانية على نظيرتها الأمريكية، كما أدرك قلق البنتاجون المفرط من اعتماده على الرقائق اليابانية، ومع ذلك ولأسبابه الخاصة، لم ينيس بكلمة ليمنع ابتزاز الولايات المتحدة، ترى هل كان لدى حكومة الولايات المتحدة شىء ما ضده يتعلق بقضية رشوة اللوكهيد عام ١٩٧٦، أم ترى لديها معلومات محرجة أو اتهامات ما حول فضيحة سياسية أخرى، وأياً كانت الأسباب فلم يضغط ناكاسونى مستفيداً من هذه المزية. لكم كنت أتمنى لو أنه كشف أوراقه جميعاً، وكان عنيفاً على الأقل بما يكفى للقول «لدى حكومتى وجهة نظر مختلفة بهذا الصدد».

لابد أن يعرف الأمريكيون أن الحقبة الحديثة قد انتهت وأن معتقداتهم الأثيرة فى المادية والعلوم والتقدم لم تثمر إلا المرارة، فالهزيمة فى فيتنام على الرغم من النابالم المنهمر على الريف الفيتنامى لعشر سنوات، تبرهن على عيب القدرة العسكرية، لقد سخرت أمريكا العلم وأنفقت أموالاً طائلة للوصول إلى القمر لتجد فى النهاية كومة من الصخور العقيمة، كل هذا المال والجهد، ما العائد الذى خرجت به الأمة؟ فما الذى تمثله أمريكا الآن من الناحية الاقتصادية، لا شىء يوجد سوى نشاط وفاعلية فى الحضيض، على حين أخذت اليابان فى تجاوز الولايات المتحدة بخطوات كبيرة.

ولا يرجع التباين التام بين اليابانيين والأمريكيين فى مجال الصناعة والعمل، لمجرد الكفاءة فقط، ونمنى بالكفاءة الإنتاج والتوزيع والخدمات، ولكن التباين يتصل بالأموال وبالقيم الشرقية، فاليابان بلد آسيوى وجزء من العالم الرأسمالى، ولقد تقدمت اليابان فى الملعب وأصبح متأخراً الآن أن يطالب الأمريكيون اليابان بالتغيير لمجرد أنها تعمل وفقاً لمبادئ مختلفة، مكررة بذلك ما يكرره النقاد الرجعيون، نحن ننتهى إلى

الشرق ونحن في خضم اللعبة، واتهامنا بأننا أمة غير منصفة في التجارة، لمجرد أننا لا نتبع الأسلوب الأمريكي لهو تهجم وضيع وفج. لا تختلف هذه القراء اليابانية للموقف الأمريكي من بلاد الشرق بوجه عام، عن قراءة المفكر العربي، فالصورة تكاد تكون واحدة، وناكسوني العربي مازال يحتل الصدارة في الخضوع لأمريكا تحت وهم الصداقة. بل أن التبجح ذهب بالبعض ليقول إن علاقتنا مع أمريكا علاقة استراتيجية، ونحن أصدقاء لأمريكا، أية صداقة هذه؟ إنها تبعية وعمالة، فعلينا أن نطيع الأوامر، ونزلق لتقديم كل التنازلات مقابل لا شيء قد تكون المعونة الأمريكية، ولكن ما تساوى المعونة الأمريكية في مقابل تحطيم الأمة، هأمريكا تفزو العراق، والزعماء العرب غير قادرين على وصف الفزو الأمريكي بأنه احتلال، ولا يتحرك العالم العربي لمساندة العراق وتقوية مقاومتها للاحتلال.

## ثورة كوبا وظهور جيفارا

ويقول جيفارا عن فترة تكوينه الأولى، حينما بدأت أتعلم الطب كنت أحلم بأن أكون باحثًا مشهورًا، ولكن ذلك يعد إنجازًا شخصيًا، ويعد تخرجه وفي تجواله في أمريكا اللاتينية تأثر بالبؤس والجوع والمرض وبدأ وعيه السياسي يتحرك، وفي جواتيمالا تعلم من تجربتها الاشتراكية أن يكون طبيبًا ثوريًا أو ثوريًا على وجه العموم، ويجب أن يكون هناك ثورة أولاً، أن العمل المنعزل لرجل واحد بغض النظر عن مثاليته النقية لا يساوي شيئًا، ولكي تبقى مفيدًا فمن الضروري أن تصنع الثورة كما فعلنا في كوبا حيث تحرك كل الناس وتعلموا كيف يستخدمون الأسلحة ويحاربون معًا، ولقد تعلم الكوبيون الآن مدى قيمة الأسلحة ووحدة الشعب.

في قلب الثورة تلتفى الفردية، الفردية كما هي عمل منعزل للضرد في حركة اشتراكية يجب أن تختفى من كوبا. الانفراد في المستقبل يجب أن يكون الاستخدام السليم للفرد الكامل للخدمة المطلقة للمجتمع. الثورة ليست الوسيلة المعيارية للرغبة الجماعية. فهي المحرر لقدرات الشخص الفردية، لأنها توجه هذه القدرة لخدمة الثورة.

لقد اصطلك جيفارا مفهومًا أصبح مرادفًا له وهو «الرجل الجديد» وهي كلماته:

«كيف توفق بين جهد الفرد وحاجات المجتمع؟ علينا أن نتذكر من جديد إلى أي مدى حياتنا متشابهة، ما يفعل كل منا ويفكر فيه كطبيب أو في أي وظيفة طبية أخرى، قبل الثورة علينا أن ننقل ذلك بحماس ناقد عميق - وعندها سوف نصل إلى نتيجة أن كل شيء فكرنا فيه أو

شعرنا به في الزمن الماضي قد تلاشى. ونوع جديد من الإنسان يجب أن يخلق، وإذا أصبح كل فرد منا مهندس هذا الإنسان الجديد - سوف يكون خلق هذا الإنسان الجديد الذي يمثل كوبا أكثر سهولة.

وحينما أشار إليه بعض الاقتصاديين الماركسيين على أنه يجب أن يعطى الفلاحين المشاركين في المزارع الجماعية أجرًا إضافيًا عن الجهد الزائد الذي يقومون به، رد جيفارا بأن العمال ليسوا في حاجة للشعور بالملكية ولكنهم في حاجة للشعور بالمسئولية.

كان جيفارا يريد أن يقفز على المراحل في التحول الاشتراكي في كوبا بالذهاب مباشرة من الرأسمالية إلى الشيوعية في تشابه كبير لمحاولة ماو في الصين عام ١٩٥٦ - مع حملته الراديكالية (قفزة كبيرة إلى الأمام) - وباختصار كان «شيء» سابقًا عصره بكثير في الأفكار - بالنسبة لواحد قد دخل الشيوعية لتوه.

وعلى بعد من شفافية جيفارا ومثاليته فإن ما كان يبني في كوبا بقيادة كاسترو سواء أكانت اشتراكية أو غيرها كان عبارة عن عبادة للفرد على طراز قديم، وكان على الكثيرين من زملاء كاسترو ورفاقه في الكفاح أن يعبروا عن معارضتهم لهذه التغييرات الراديكالية، وتركوا صفوف الثورة ويهرب معظمهم إلى الخارج، لقد فقد بعض المحللين الثقة في كاسترو الذي كانوا يشبهونه بالقدیس أو المسيح قبل عام من لحظة التغيير الراديكالي، واتهم البعض كاسترو بأنه يأخذ كوبا إلى حالة (من العذاب).

وكان على كاسترو أن يواجه أعداء الثورة وخصوم اتجاهاته الراديكالية الجديدة، وظهرت الكنسية أيضًا معارضة له مما جعله يشكو من تحفزات الكنيسة المنظمة.

ويقول كاسترو: «يبدو واضحًا أن كل ثورة لها أعداؤها، وإنما تشتعل الثورة ضد طغف الحكومة التقليدية التي لا ترجو الشعوب منها نفعًا،

ولا عدالة، ولا تطويراً، ولا تقدماً، ولكل ثورة ضحاياها، كما لكل حرب ضحاياها والثورة إما أن تكون اجتماعية أو سياسية، وهل نرى في توحيد إيطاليا، وتوحيد شمال وجنوب الولايات المتحدة، ثورة أم إنها حروب قام بها قادة أرادوا نظاماً جديداً في منطقة ما، هل يمكن أن نوجه اللوم لمن أراد على سبيل المثال القضاء على وجود القبائل النورماندية في أوروبا وتكوين كيانات سياسية أكبر أو جيرارلدى أو جورج واشنطنون في حريهما لتوحيد إيطاليا والولايات المتحدة.

وكانت مسألة الحكم الجديد في كويا قضية رئيسية في حملة الانتخابات الأمريكية، واتهم كيندى ايزنهاور بالتهاون تجاه كويا وأنه سيعمل لإعادة الديمقراطية في كويا، وعمل البيت الأبيض على إصدار قوانين لفرض العقوبات على البلاد التي تشتري السكر الكوبي بقروض أجنبية، وقطع المعونات عن البلاد التي تقدم أى عون لكويا وأخذت الولايات المتحدة وضع كويا إلى منظمة الدول الأمريكية وضغطت لإصدار إعلان بالإجماع يدين أى تدخل في نصف الكرة الجنوبي من القوى خارج القارة في إشارة إلى الشراكة المتنامية بين كويا والاتحاد السوفيتي.

ورد كاسترو على إعلان «سان جوزي» بتحديد موقف كويا في نصف الكرة كمثال ثوري، وأعلن عن إصرار كويا على حماية حقوق المضطهدين بالحرب ضد الاستغلال والراسمالية والاستعمار، وهدد بأنه إذا أعلنت الولايات المتحدة الحرب على كويا، فإنه لن يتردد في قبول صواريخ الاتحاد السوفيتي الموجهة. وأخيراً أعلن أن بلاده ستعترف بالصين الشعبية.

كان جيفارا يقول «أنا لا أعرف إذا كانت الثورة ستجح أم لا، ولكن لا تبحث عني في القارات فسوف أذهب إلى الخارج حاملاً بندقيتي إلى الأدغال - سأستمر في الحرب إلى النهاية.

أنا كرسيت حياتي لها، لبناء الاشتراكية، إننى كنت أقرأ أولاً لأبنى، بعد ذلك الجامعة يجب أن تأخذ باللون الأسود، لون العامل والفلاح، وإذا لم تفعل فسوف يمتحم الشعب أبوابها، ويصبغون الجامعة باللون الذى يريدونه..

وحينما أصبح جيفارا مسئولاً عن قطاع الصناعة فى كوبا بدأ يتعلم الرياضيات وحساب المثلثات أولاً، وسريعاً ذهب إلى الهندسة التحليلية. وحينما أراد كاسترو أن يعين رئيساً للبنك بعد أن عزل رئيسه السابق من منصبه لاحتجاجة على القبض على أحد المناوئين للثورة، قال فى اجتماع عام ما نحتاجه هو اقتصادى جيد، فرفع جيفارا يده فقال كاسترو: أننى أعلم أنك لست اقتصادياً، فأجاب «شىء»: «كنت أتوقع أن تقول إنك تحتاج شيوعياً جيداً».

دعا جيفارا إلى تكوين حلف دولى من الدول المستقلة حديثاً فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية يقف فى مواجهة الاستعمار، ومنذ اللحظات الأولى التى استقرت فيها ثورة كوبا خرج جيفارا نفسه على المسرح العالمى.

وفى فبراير ١٩٥٧ طار وزير خارجية كوبا إلى آسيا وشمال إفريقيا ليتمد بدعوة كوبا لحضور مؤتمر دولى للبلاد النامية يعقد فى هافانا. ومنذ ١٩٥٧ أخذت حوالى عشر دول استقلالها من الاستعمار الفرنسى والبريطانى والبلجيكى - وبلاد أخرى مثل الجزائر كانت تخوض الحرب من أجل الاستقلال، لقد انتهى عهد الاستعمار، والمستقبل أصبح بيد رجال واجهوا الإمبراطوريات الميتة مثل ناصر وسوكارنو - ولماذا لا يلتحق كاسترو بالركب.

وكان كاسترو قد أعلن عام ١٩٦٠ عام الإصلاح الزراعى ولكن من الأفضل أن يسمى عام المواجهة، لقد تدهورت العلاقات بين كوبا والولايات المتحدة، وتسارعت خطوات التحول الاشتراكى، وبدأت الحرب

مبكرًا في يناير مع مذكرة احتجاج أرسلها وزير الدولة هرتز حول الاستيلاء غير القانوني على الأملاك الأمريكية دون دفع التعويضات عنها، وردت كوبا بالاستيلاء على كل المراعى الكبيرة، وكل أراضى زراعة قصب السكر في كوبا بما فيها ما يمتلكه الأمريكان - وفى أعقاب ذلك هاجمت طائرات مجهولة الهوية من أراضى أمريكا وقذفت بالقنابل حقول القصب في كوبا، وكانت عمليات التخريب تنظمها وكالة المخابرات الأمريكية التى كانت تخطط حينئذ لتدريب قوات فى المنفى من أجل بناء حملة عصابات ضد كاسترو.

ولقد أشعل التفاعل داخل أمريكا السياسة الداخلية فلقد كان الرئيس أيزنهاور فى سنته الأخيرة لمدته الثانية، وحملة انتخابات من يأتى بعده على الأبواب، ومع بداية الحملة استغل نائب الرئيس نيكسون كوبا كمادة فى دعايته الانتخابية متحدثًا كاسترو بأنه سوف يعاقب على أفعاله، وكان ضمن التهديد قطع استيراد حصة أمريكا من السكر الكوبى وأجاب كاسترو على التهديد بتحديه المعتاد، وفى ١٩ يناير ردت «إنراء بمصادرة كل الممتلكات الكبيرة التى يملكها الكوبيون والأجانب، ووضعت كل الممتلكات الزراعية الكبيرة فى قبضة الثورة.

ومن أجل حماية الثورة الكوبية أراد كاسترو أن يشتري الأسلحة، ورفضت معظم الدول تحت ضغط أمريكا أن تباع لكوبا السلاح، فيما عدا بلجيكا وإيطاليا، وجاءت سفينة محملة بالأسلحة من بلجيكا لكنها تفجرت فى ميناء كوبا، وكانت الضحايا مائة قتيل ومئات الجرحى. بعدها اضطر كاسترو لأول مرة أن يطلب السلاح من الاتحاد السوفيتى الذى رحب بإرسال السلاح إلى كوبا.

وانعقد فى هافانا مؤتمر للمثقفين اليساريين من أوروبا وأمريكا اللاتينية وكان من بين المدعوين جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار بدعوة من كارلوس وانكى، وجرت محادثة طويلة بين سارتر وجيفارا،

وتأثر سارتر كثيرًا بجيفارا فنعاها بعد وفاته إلى الرأي العام الفرنسي بأعلى قدر من التقدير يمكن أن يقدم، جيفارا لم يكن «فقط مثقفًا بل الإنسان الأكثر كمالاً في عصرنا».

وفي زيارتها لشوارع هافانا كتبت دي يوفوار في مذكراتها «قانون مشهورون يرقصون أو يفتنون لجمع المال، فتيات حسناوات بملابسهن الاحتفالية تقودهن فرق موسيقية يسرن في الشوارع يجمعن التبرعات، إنه شهر عسل الثورة».

أما سارتر فيقول «لا آلية، لا بيروقراطية ولكن اتصال مباشر بين القيادات والشعب، وكتلة من الآمال المختلطة، إنها لن تستمر للأبد، ولكنه منظر مريح، لأول مرة في حياتنا نشهد سعادة حصلنا عليها عن طريق العنف».

وفي ٢٣ مارس أعطى جيفارا حديثاً تلفزيونياً تحت عنوان «السيادة السياسية والاستقلال الاقتصادي»، من خلال الاستيلاء الثوري على السلطة حصلت كوبا على استقلالها السياسي ولكنها لم تكسب بعد استقلالها الاقتصادي التي بدونها لن تكون دولة ذات سيادة سياسية.

الثورة يجب أن تكون جذرية وتقتلع جذور الشر التي تعانى منها كوبا من أجل القضاء على عدم العدالة وأولئك الذين يعارضون الإجراءات الثورية هؤلاء الذين يقاومون انتزاع سلطانتهم وسطوتهم أعداء للثورة، والعمال يسهمون بحوالي ٤٪ من أجورهم لبرنامج التصنيع، وأنه الوقت لكي يتكاتف بقية أفراد المجتمع بالمساهمة بتصويبهم العادل في التضحية الثورية.

إن كوبا لم تعد كوبا السابقة بل كوبا الثورة، والثورة هي الشعب، ثم تقدم خطوة أخرى ليقول كوبا والناس والثورة هم كاسترو، إنه الوقت أن تعلى ظهر السفينة الجديدة للدولة، أو ننسحب مثل رجال (الجرانما) الذين وضعوا جانباً حياتهم الفردية مستعدين للموت إذا كان من

الضرورى فى الحرب ضد باتستا - وهكذا على الكوبيين الآن أن يضحوا للهدف العام للاستقلال التام، والعدو سوف يرد، حذر جيفارا، وحينما يأتى جنود الثورة المضاده مدحوعين من نفس المحتكرين الذين تأثرت مصالحتهم، يجب أن نحارب دفاعاً عن كوبا، وليس بوساطة أفراد يعدون على الأصابع، ولكن بالملايين ومعاً كما قال فيدل «الكل سينجو أو نغرق». لقد نسى جيفارا نفسه، مهنته من أجل الثورة، ولماذا لا يستطيعون هم؟ ويعنى بذلك طلبة الجامعات الانفراديين وعقلية الطبقة الوسطى، وفى أوائل مارس رجعت ثانية لجامعة هافانا ليذكر الطلبة بأن عليهم واجباً يؤدونه فى تنمية اقتصاد كوبا، وليس هنا ازدواجية فى المبادئ، مع الطلبة المنعزلين عن الثورة، إن شعور الفرد بمهنته فقط ليس تبريراً لتقرير طريقه الوظيفى، والإحساس بالواجب الثورى يجب أن يحل بدلاً منه واتخذ من نفسه مثلاً.

«أنا لا أظن أن المثال الفردى وأنا أتكلم إحصائياً له أى أهمية، فأنا ابتدأت طريقى الوظيفى بدراسة الهندسة ولكنى انتهيت كطبيب ثم أصبحت قائداً عسكرياً، والآن ترونى هنا كمتحدث، إن ذلك يعنى أنه بداخل الفرد الواحد لا تلعب المهنة دوراً حاسماً، وأنا أظن أن الفرد يجب أن يفكر دوماً بالنيابة عن الجماهير وليس بالنيابة عن الأفراد. إنه لجريمة أن تفكر فى الأفراد لأن حاجات الفرد يمكن أن تضعف تماماً فى مقابل حاجات المجتمع الإنسانى».

جيفارا كان يعمل على تصدير الثورة ومقاومة الاستعمار والطبقات المحتكرة فى كل أرجاء العالم، أسهم فى مناصرة الثوار فى الكونغو، ثم رحل أخيراً إلى بوليفيا ليموت هناك برصاص الجيش البوليفى.

وفى نعى جيفارا قال فيدل فى جمع تجاوز المليون فى ميدان الثورة بهافانا «إذا كنا نريد النموذج للإنسان الذى لا ينتمى لعصرنا بل للمستقبل فأنا أقول من أعماق قلبى أنه ذلك النموذج بدون بقعة واحدة

على تصرفاته، وبدون بقعة واحدة على سلوكه، إنه «شىء»، وإذا كنا نريد أن نعبر عما يمكن أن يكون عليه أطفالنا يجب أن نقول من قلوبنا كثوريين أقوياء، نحن نريدهم أن يكونوا مثل جيفارا».

وحينما سأله الضابط الذى أسرته قوته وهو جريح، هل أنت كوبي أم أرچنتينى؟ أجاب جيفارا، أنا كوبي، أرچنتينى، بوليفى، بيروى إكوادورى... إلخ هل تفهم؟

ماذا جاء بك إلى بوليفيا؟

ألا ترى الحالة التى يعيشها الفلاحون، إنهم يشبهون البدائيين، يعيشون فى حالة من الفقر تدمى القلوب، يملكون حجرة واحدة فيها ينامون ويطهون الطعام؛ لا ملابس يرتدونها، متروكون كالحوانات.

كان جيفارًا غاية فى الشجاعة وهو يسير فى حماسه البالغ لتحرير أمريكا اللاتينية - ذهب إلى الفلاحين هناك ماركسيًا، ويبدو أنهم كانوا متدينون وجرعات الدعاية ضد الشيوعية كانت قوية لدرجة أخافتهم منها، فلم يتعاطفوا مع جيفارا الذى جاء ليحررهم، لم يساندوه وهو فى صراعه المرير مع القوات البوليفية، يبتعدون عنه ولا يقدمون له أية مساعدة يحتاجها، بل إنهم أرشدوا القوات التى كانت تطارده عن أماكن ترده واختفائه..

لم يكونوا مهيثين للثورة، ولا لتحرير أنفسهم من ريق الفقر والاستغلال، إنهم لا يمون شيئًا ولا يشعرون بذواتهم المفقودة، يعيشون كالحوانات كما قال جيفارا.

حينما قبض عليه كان مصابًا فى رجله بإحدى رصاصات العدو لا يستطيع الحركة ممدًا على أرض الحجرة التى كان يختبئ بها - وفى حالته هذه لم يرحمه الضابط الذى توصل إلى مخبئه وأطلق عليه الرصاص بدم بارد فأرداه قتيلاً، وهكذا كانت أوامر القيادة العسكرية البوليفية على الرغم من أن المخابرات الأمريكية كانت تريده حيًا.

## الصحوۃ الإسلامیة

والیوم نجد قدرًا كبيرًا من شبابنا المتدینین قد أساءوا إلى الصحوۃ الإسلامیة أو إلى الثورة الإسلامیة التي بانّت معالمها هذه الأيام وخاصة بعد نكسة ٦٧، ويرجع الفضل لهذه الصحوۃ الإسلامیة إلى أهل النكسة أنفسهم أى إلى صانعی ثورة يوليو، فهذه الثورة هی التي أشاعت بین الناس الشعور بالعمزة والكرامة والوقوف ضد القوة التي أرادت أن تهیمن على المنطقة، فی ثقة بالنفس واعتزاز بكرامة الإنسان العربی ومركزیته بعد أن ظن الناس أن المركزیة للغرب وحده، هكذا وإن عانى الإنسان فی مصر الكثير من الضغط وعدم الاشتراك فی اتخاذ القرار على أیدی رجال الثورة أنفسهم. وإن جاء ذلك فی سباق معارك سیاسیة بین الثورة وخصومها. لم تكن الأمور قد استقرت للنظام الثوری الحاكم تحت ضغط المعارك الخارجیة والداخلیة، حتى يعطى حرية التعبير للجميع، بل هی طبیعة الأمور بالنسبة لكل ثورة فی مهدها، والتاریخ يشهد على أحداث الثورة الفرنسیة فی بادئ عهدها، وفی مراحل الثورة الصینیة وحتى الآن وربما تلك الأحداث المقیدة للحریات لا تعیب الثورة وهی تنتقل بالبلد من حال متردٍ إلى حال أكثر تطورًا ذلك إذا نجحت القیادات الثوریة فی فعل ذلك، ویبدو أن تطور الأحداث فی فرنسا من عهد الثورة حتى الجمهوریة الخامسة أدى فعلاً إلى بناء فرنسا الحدیثة، كما فعلت الأحداث فی الصين، حیث تبوات الصين الیوم مركزًا متقدمًا بین الكیانات الصناعیة الكبرى.

أما فی مصر فمسیرة الأحداث بعد أيام الثورة الأولى وبالذات بعد وفاة عبدالناصر تدل على أن البلاد تسیر فی حالة انحدار رهیب، ذلك

لأسباب عدة، أبرزها أن عبدالناصر وهب لجماهير الشعب المصرى مكاسب أنجزتها الثورة كمنحة للعمال والفلاحين دون أن يناضلوا أو يتعبوا لاكتسابها، وما جاء سهلاً ذهب سهلاً، فلم تستطع جماهير الشعب الحفاظ على مكاسب الأمة، القطاع العام، مصانع الأمة، التى بناها العمال المصريون بالعرق والدم بيعت بأرخص الأثمان لمصلحة طبقة رأسمالية مستغلة عفنة، واغتصبت الأراضى من الفلاحين، ولم يحاول الفلاحون والعمال المقاومة، قد يكونوا قاوموا، ولكن المقاومة كانت ضعيفة جداً أمام قوم صمموا على سلب جموع الشعب حقوقهم لمصلحة فئة وبالأحرى عصابة تحكم البلد وفى النهاية الأمر لمصلحة أمريكا.

فقدت الحرية أهم أركانها وهى القدرة على التعبير عن الآراء المختلفة، ولعل رجال الثورة لهم عذرهم فقد كانوا حريصين على حماية الثورة ضد أعدائها فى الخارج والداخل، إلا أنهم أساءوا الاختيار لمعايير هذه الحماية وإجراءاتها.

وكان هذا الكبت للآراء بداية النهاية للثورة ومع نهايتها وانتكاساتها جاءت الصحوة الإسلامية، ومما زاد فى قوة هذه الصحوة وانتشارها، ما أنفقه أهل الخليج على نشر الروح الإسلامية الجديدة المتوثبة بما أنشئوه من مجلات وصحف إسلامية، وما أسسوه من دور ومعاهد إسلامية فى بلادهم وفى سائر بلاد العالم.

ولعل أخطر ما وقعت فيه هذه الصحوة اتجاه البعض لتكفير المسلمين لمجرد الاختلاف فى رأى أو فى المذهب أو فى الموقف السياسى.

هذا وعدم رضانا عن التكفير لا يعنى أننا نقر أمثال نصر حامد أبوزيد أو حسن حنفي فيما يذهبون إليه - ونحن بدل أن نكفرهم نجادلهم بالحسنى ونردهم فيما أساءوا به إلى الإسلام. وتنقل المعركة معهم إلى ساحة الفكر السياسى، ونوضح كيف أنهم يفاضلون العلمانيين فى الداخل الذين لهم السطوة، ومتقضى الغرب فى الخارج الذين يغرونهم

بالسير في سبيل النيل من الإسلام وعظمته، ويخضعونهم وهم يعاملونهم كأنهم أئمة المجددين للفكر الإسلامي المستتير.

وكان هذا التكفير ابنًا طبيعيًا للجمود الذي أصاب فئات معينة من شبابنا وشيبنا، فمن دخلوا إلى باب العلم والعمل من باب اللحاق بالصحوة الإسلامية منهم من سمع درسًا فظنه الدرس الوحيد، أو قرأ كتابًا فحسبه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - ولم يعلموا أن للعلم وجوه عدة، وأن الآباء والأجداد اعترفوا بالاختلاف في الفكر والفقہ أو في الرأي والعمل، وروى بعضهم عن بعض. وكانوا يدعون لمخالفهم - قبل الموافقين، بالجزاء الحسن ويثنون عليهم خيرًا ولا يقولون فيهم مع الاختلاف مهما بلغ إلا قولاً ليناً كريماً.

وإن أسوأ ما يضر بالصحوة الإسلامية هو العداوة التي يبديها البعض لمن يخالفنا في الدين أو في الحضارة - واعتبر هؤلاء أن الغرب كله شر والحضارة الغربية كلها فساد، والمواطنون غير المسلمين مواطنون من الدرجة الثانية، وهم غير مواطنين أصلاً، وغفلوا عن قوله تعالى: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولكنه تركهم مختلفين. بل أن الشريعة الإسلامية حمت حقوق الأخوة في الوطن وفي الإنسانية - وحماها الفقه الإسلامي قبل أن تظهر كلمة التعددية - أو يسلم الناس - في أي مكان - بجدوى التنوع وضرورته..

وبات لزاماً أن لا تترك الأجيال الناشئة بغير تحصين ناجع ليقاوموا هذا الفكر الغريب حتى لا تسقط فريسة له لا محالة. فالنفس تواقعة إلى ما يملأ فراغها الروحي ويشغلها في حياتها بما تظنه نافعاً ومفيداً وبناءً وإذا لم يشغلها أهل الحق به، استولى عليها أهل الباطل بباطلهم.

وربما لا يعير الكثيرون الانتباه إلى السبب الرئيسي للتطرف والغلو في معاداة الآخر لدرجة إنكاره.. إن ما نتعارف على تسميته بالحركة الإسلامية اليوم قد ظهر في أواخر العشرينيات من القرن التاسع عشر،

ولظهورها في هذا الوقت دلالة، لأن من يراجع مطالعة التاريخ الحديث منذ الحملة الفرنسية في أوائل القرن التاسع عشر، يتكشف له أن الغزو الاستعماري الأوروبي لبلادنا قد جرى على مدار القرن التاسع عشر في المجالات الاقتصادية والسياسية، والفكر والحضارة جميعاً، فضلاً عن الغزو المسلح، ويلزم الاعتراف بأن المقاومة الوطنية جرت ضد الغزو في مجالاته المختلفة، ومنها الميدان الفكري والحضاري للمحافظة على الهوية الذاتية للجماعة المحلية، وصار هذا الميدان من الصراع ممتداً، تتصاعد حدته مع نشاط عوامل التغريب.

على أن هذا الوجه من أوجه الصراع الوطني ظل معتمزجاً ومرتبطاً بالصراع الوطني السياسي حتى قامت الحرب العالمية الأولى، وحتى نهايتها ونحن نلاحظ في مصر وسائر البلاد العربية ارتباطاً بين الحركات السياسية المقاومة للاستعمار، وبين التكوين الإسلامي في المعتقد والحضارة، وبين حركات التجديد والإصلاح. وذلك على مدى القرن التاسع عشر.

ويمكن القول بأن الفكر الغربي كمنظريات سياسية واجتماعية وكمصدر للاحتكام والشرعية، لم ينفرس في أرضنا إلا في أواخر القرن التاسع عشر وفواتح القرن العشرين على أيدي منابر ومدارس ذات صلات وثيقة بالوفاة الأجنبي.

ولكنه حتى ذلك الوقت، بقي شبه مفصول عن الحركة الوطنية السياسية، ولعل الحزب الوطني في مصر يكون من الأمثلة الواضحة على ذلك، إذ ظل يقود الحركة بصفة إسلامية سياسية واجتماعية.

ولكن مع انتهاء الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٨ وفي السنوات القليلة التالية، تبدل الموقف، وأهم أوجه التغيير تعلق بثلاثة أمور، أولها: ظهور ما يمكن تسميته بالوطنيين المتغربين، أو بالوطنية العلمانية، وقيادة هذا التيار للحركات الوطنية، وانطباع مشروعه للاستقلال

السياسى بتماذج التيارات الحضارية الغربية، وبدا هذا العنصر كما لو أنه انتصار حاسم للعلمانية والتغريب، وثانيها، إلغاء الخلافة العثمانية الإسلامية فى تركيا، بما أفقد الإسلامىة السياسية المؤسسة المجسدة لهويتها، وثالثها تجزئة البلاد العربية وتقسيمها أشلاء مبعثرة بين القوى الأوربية المنتصرة.

وفى هذا الظرف التاريخى، وقبل أن تمضى عليه سنوات قليلة ظهرت الحركة الإسلامية السياسية، وكانت قد انفصلت الحركة الوطنية السياسية بقيادتها عن حركة المقاومة الفكرية والحضارية للوافد الأجنبى، فاستوجب هذا الميدان جيشًا آخر وقادة آخرين. ولقد قوى المد التغريبى والعلمانى بعد أن البسته القيادة العلمانية الوطنية شرعية الوجود فى المجتمع وبعد أن تشكل نموذج الأحياء الوطنى على وفق صيغ الغرب فعظم الصراع واحتدم فى هذا الميدان، وصارت تقاوم فيه الحضارة والموروثه عن وجودها، فكرًا وعمقيدة ولقد ألغيت الخلافة كمؤسسة جامعة، وزالت من الوجود وتناثرت البلاد أشلاء، فلزم لم الشمل من جديد، وليس صدفة، أن تظهر الحركة الإسلامية السياسية وتتمو سريعًا فى مصر، البلد الذى لم تكن العروبة كدعوة جامعة قد انتشرت فيه بعد.

ظهرت الحركة الإسلامية مع هيمنة التغريب وتصاعدت مع تصاعده، وهى تتمو مع عتوه، وفى إطار هذا الوعاء العام للسببية، يمكن إضافة أسباب أخرى مكمله وقد تكون صحيحة بقدر أو بآخر فى هذا الحيز من الصورة العامة.

ولو أننا بقينا على ديننا وتمكسنا بتعاليمه وصنعنا قوتنا وألفنا بين قلوبنا ما نزلت بنا هذه الكوارث، لقد تعرضت بلاد الإسلام لهزائم كبيرة، فليست الهزيمة الكبرى التى منى بها العرب بغزو أمريكا للعراق ومحاصرتها للمد القومى والوطنى العربى الأولى فى تاريخ الدولة

الإسلامية. ففى القرن السابع الهجرى كان كل شىء يؤذن بزوال دين محمد ﷺ كما يقول «فيليب حتى» فى كتابه «تارىخ العرب» فقد جاء الصليبيون من أوروبا جعافل لا آخر لها، واستطاعوا اقتحام عواصم عربية كبيرة، فكروا فى الهبوط إلى شمال الحجاز ليلبغوا القبر النبوى، وفى الوقت نفسه اجتاح المغول شرق العالم الإسلامى، ودمروا المدن العظام ولم يبق إلا أن تنطبق ذراعًا الكماشة حتى يمسى العالم الإسلامى كله فى خبر كان.

ونجا المسلمون من هذا البلاء الماحق واستأنفوا رسالتهم، لكن الجماهير المؤمنة فى هذا العصر البعيد رزقت قادة من طراز رفيع أمثال صلاح الدين الأيوبي، وبيبرس، وقطز لقد مزقوا المغيرين فى هذه المعارك العظام وأنقذوا أمتهم من دمار محقق، فهل لدى المسلمين المعاصرين أمثال هؤلاء...؟

والإجابة مخزية، لقد ظهر فى العالم الإسلامى رجال، وصفوا أنفسهم بصفات سمية، وأحاطت بهم جموع مخدوعة، وكان الهمتاف لهم يشق عنان السماء، والغريب ليس فى هزائمهم المتتابعة بل الغريب أنهم منحوا العدو أرضًا جديدة، وأضافوا إليه قوى هائلة حتى وكانهم يقاتلون معه لا ضده.

لقد فتحت بفضل القادة العرب، بوابة الجحيم على الأمة، وبعد أن كان هناك حاكم أو اثنان، أو حتى أربعة يتعاملون مع القوى الأجنبية بصفتهم تابعين عملاء متخاذلين يقدمون للعدو كل ما يطالبهم به، بدأ الطلابور يكبر، عبر مسلسل كبير للانبطاح والاستسلام والرضوخ للأوامر الأمريكية.

إن اليهود أسروا المسجد الأقصى، وبين الحين والحين، تذهب أفواج منهم لإقامة الشعائر اليهودية به، والخطة المرسومة أن يهدموه يومًا لينبوا على أنقاضه هيكل سليمان.

وحملات التبشير ماضية فى طريقها ليكون الإسلام دينًا ثانيًا فى أفريقيا وآسيا تمهيدًا للخلاص منه والفرز الثقافى يدرج العرب عن مواريتهم ليتخلوا عنها طامعين قبل أن يتخلوا عنها بحد السيف.

لقد أفلح الغزو الثقافى فى تكوين أجيال باردة الأنفاس إزاء دينها ومطالبه، ولعلها تحسب الارتقاء النفسى فى هذا البرود، فهى تتظاهر به أو تستند إليه، بينما نجد اليهودى من بولندا يعانق أخاه من الحبشة مظاهرًا له معتزًا به.

والانتماء الغالب الجامع هو الذى جعل الكردى صلاح الدين يقاتل من أجل فلسطين ليردها إلى العرب، وهو الذى جعل قطز يصيح «وإسلاماه» عندما لحظ بعض الوهن فى الجيش المصرى، فكان هذا الصوت الراعد المؤمن بدء التحول فى المعركة كلها، فقتل «يلبغا» قائد التار وسيطرت روح الإسلام على الساحة كلها.

ولعل قطز وهو أصلًا من تركستان، كان أقرب إلى المغول بدمه، ولكن الإسلام كان أثر لديه وألصق بقلبه.

ومن اليسير أن نرى القومية الضيقة تعمل عملها بين المسلمين الآن، وتربط الحرب والسلام بحدود مفتعلة، ولو بقى المسلمون على سليقتهم الأولى لتغيرت أوضاع كثيرة.

وليس المهم هو الولاء السياسى، على ضرورته الماسة، بل المهم هو بناء الأخلاق والمهم أيضًا فى الكيف لا الكم، رجال عاهدوا الله أن ينتصروا لأمتهم، لا بالكلام ولا بالطينين ولكن بصنع القوة.

إن الجمع الهش الهامد فهو غناء والناس ألف منهم كواحد، ويكفى ما أذابته العلمانية والماسونية من ولاء خالص لله ودينه وعبادته حتى فقد المرء رباطه مع أمتهم وأخوته.

الأمة فى حالة تحد كبير - ومقاومة التحدى فى بناء مشروع نهضوى إسلامى، وهو مشروع لا يقصد بناء العداء أو تقويض الحضارة الغربية،

ولكنه يهدف فى المقام الأول إلى صيانة هويتنا، ذاتيتنا الحضارية فى مواجهة محاولات التغريب والتذويب الدائبة، والمؤثرة قطعاً فى بناء الأمة وكيانها.

وفى سبيل تحقيق هذا المشروع علينا أن نفهم الإسلام فهماً صحيحاً كعقيدة وشريعة ونظام أخلاقى أراد الله أن يكون بناء حضارياً شاملاً لعالم متحرك متغير متطور ولشعوب مختلطة الأجناس والتاريخ والثقافات.

ولا أرى فى ذلك أى تجديد فى الفكر الإسلامى بل إحياء الفكر الإسلامى الصحيح، بعد أن طمسته أفعال الأعداء، وخلخلته المذاهب والفرق، ومن الفهم الصحيح علينا أن نقابل التحدى بالعمل السريع مستخدمين كل أسلحة العصر ووسائله، حتى يخرج المسلمون من التخلف إلى التقدم، ومن التبعية إلى الاستقلال، ومن الفقر والاعتماد على الآخرين، إلى الغنى والاعتماد على الذات، فى إطار التعاون وتبادل المنافع مع الآخرين، وعلينا أن نتحدى الانتقال من الفرقة والتمزق إلى نوع من التوحد فى الفكر الأساسى، بعيداً عن استهلاك الطاقات فى معارك بينية، وعداوات صغيرة حول قضايا هامشية، أكثرها مغلوطة لا قيمة له، ولكنها تترك الجسد الإسلامى كله مرهقاً مكدوداً - وينصرف العقل المسلم عن مواجهة القضايا الحقيقية الكبرى.

وتظل سيطرة الأنظمة العربية الهاجس الأكبر الذى يحول بعض الجماعات الإسلامية السياسية إلى استخدام العنف، فهى تعتقد أن الحكومات تسعى بإصرار إلى التصفية الجسدية لكل فصائل العمل الإسلامى، متذرعة بدعاوى التطرف والإرهاب، وإن المستهدف النهائى هو الإسلام ذاته كعقيدة وشريعة ونظام للحياة. والحقيقة ربما تبدو فى عقول ووعى أفراد تلك الفصائل بأنهم يتحركون داخل دائرة الدفاع المشروع عن النفس.. وعن العقيدة والحقيقة وعن الحق فى الدعوى إليهما.

ويبدو أن هناك مازق لا نستطيع أن نتخطاه وهو تدخل أمريكا في شؤون الدول الأخرى ومطالبتها الأنظمة العربية والإسلامية بمواجهة التيارات الإسلامية وهي تملئ قائمة بأكملها على الأنظمة العربية تتضمن حزب الله وحماس والجهاد الإسلامى، فى حين أن هذه الجماعات الإسلامية هى التنظيمات الوحيدة التى تقوم بعمل رئيسى فى مقاومة الاحتلال الإسرائيلى والغزوة الأمريكية الشرسة.

ولقد امتدت قائمة الإرهاب الأمريكية لتشمل المقاومة فى العراق ضد القوات الأمريكية الغازية وتسكت الحكومات العربية على ادعاءات أمريكا، فى حين تجد الشعوب العربية أن الأمل فى وقف الزحف الأمريكى إلى بلاد عربية أخرى هو فى انتصار المقاومة فى العراق، فهى لحد الآن نجحت فى كبح شهوة أمريكا لغزو سوريا وإيران بعد أن وجدت أمريكا نفسها فى مستنقع المقاومة العراقية الباسلة التى تستنزف قواتها يومياً.

والمأزق الآخر وهو الأهم عدم سماح الأنظمة العربية الحاكمة بالممارسة الديمقراطية التى من خلالها تمارس التنظيمات الإسلامية العمل فى النور حسب قواعد اللعبة التى تقرها الشرعية وقوانين العمل السياسى المنضبط، فهى دائماً ترد خوفها من أن تصل الأحزاب الإسلامية إلى الحكم كما حدث فى تركيا وذلك لعدم ثقتها فى كوادرها القيادية.

وإذا أردنا دخول المصر من بوابة الإسلام أم من غيرها فعلينا أن نعيد الروح الكريمة السمحة التى يؤكدنا النبى فى مناسبات كثيرة، وإن تجربة قيادة المجتمع دفعت الرسول ﷺ إلى تقديم الدروس الكثيرة التى تذكر فى مواضع كثيرة غير هذا الكتاب. فى الوقت الذى ركز على مسئولية المسلمين عن شؤون المجتمع فى أقوال منها «أنتم أعلم بأمور ديناكم» وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن».

وجرى التأكيد على أن خلفاء النبي تعلموا منه، فلم تكن النصوص، ولا السيف طريقهم إلى الحكم إلى أن اغتصبه معاوية، وقد جاء الإقرار بما تقدمه الخليفة الأول أبو بكر الصديق أقرباً من الشرعية التي يكتسبها هي من الشعب، وإلا لما رأى نفسه أنه لا يعلوهم وليس أفضلهم «أما بعد فإني وليت عليكم ولست بخيركم»، وهذه العبارة تتطوى على درس لمن يتولون أمور الناس، درس في التواضع وسمو الأخلاق - ولماذا أصبح الحاكم بعد ذلك بوقت قصير مقدساً ولا يزال؟ - كما أن مطالبته في الخطبة ذاتها التي ألقاها أثر مبايعته بأن يكون الناس معه ما كان على حق فإن رأوه انحرف فليحاسبوه «إذا أحسنت فأعينوني وإذا زغت فقوموني». وفي هذه العبارة ما يدل على التوجه الإسلامي للديمقراطية على عكس ما يقول من فهم الإسلام خطأ. إن شرعية الحاكم مستمدة من الشعب، ومصدر السلطة هي مصدر المحاسبة كما أقر أبو بكر رضي الله عنه. هذه التربية الإسلامية هي التي دفعت عمر أيضاً للاعتراف بالخطأ دون خوف من أن يكون في ذلك انتقاص من مكانته، ففي مواجهته مع امرأة لم يتردد في القول «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

ما بالكم لو أن إنساناً مهماً أوتى من مكانة وجاه وقف أمام حاكم مسلم من حكام هذا الزمن وبين له خطأه جهرة؟ أكان هذا الحاكم يعترف بالخطأ؟ وما الثمن الذي سيدفعه من يواجه حاكماً بهذا الشكل؟ ولو كنا نعتقد كثيراً في ديمقراطية الإسلام وفي مرونة تعاليمه، لا يحق لنا أن نسمح بالاختلاف الشديد في مصطلحات الدين ورواياته وفتاويه، وقد يبرر أصحاب المناهج الذين يقرون بالاختلاف آراءهم بمقولة منسوبة إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهي أن القرآن حمائل أوجه، وعليه فالباحث الأصولي المتمسك بهذا المنهج وينتقى الرأي الذي يهواه سلفاً، وينتقى له الأدلة من التراث، وما يشاء من الآيات القرآنية، ويتجاهل سواها وهو مملثن لمقولة إن «القرآن حمائل أوجه».

إنها الفوضى بعينها أن ينتقى كل صاحب رأى من القرآن ما يدلل به على رأيه. ويكون للمخالف للرأى ما يختاره أيضاً من القرآن ما يؤيد وجهة نظره.

وهل فعلاً قال الإمام على هذا الكلام عن القرآن؟ إن القرآن الكريم ﴿ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١) وهو كتاب لا مجال فيه للعوج ﴿ قَرَأْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الزمر: ٢٨). وهو كتاب لا مجال فيه للاختلاف ﴿ وَلَوْ كَانُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

وإذا كان القرآن لا تتناقض آياته ولا تتصادم حقائقه وليس كما يقولون «حمال أوجه»، فلماذا يتبارزون في اختلافاتهم بالآيات؟ ولماذا ينتقى كل فريق ما يؤيد وجهة نظره في مواجهة الفريق الآخر؟ تقع الإجابة على السؤال في مسألة المنهج الذى يتبعه كل باحث، والخطأ في المنهج أن تحمل رأياً مسبقاً وأنت تريد أن تناقش مسألة دينية، إن المنهج العلمى يتطلب الحيادية وعدم التمسك بفكر أو فلسفة سابقة للقراءة وتنعكس على الباحث فى جميع ما يصل إليه من الاستنتاجات.

والدولة الإسلامية ليست دولة دينية. وواقع الأمر أن الرسول صلوات الله عليه أقام دولة مدنية وبقي منها أصولها القرآنية، وما تواتر فى التاريخ والسيرة النبوية عن إقامة تلك الدولة فى الجزيرة العربية، تلك الدولة التى ما لبثت أن غيرت تاريخ العالم، ولكن ما حدث بعد ذلك أن الدولة الإسلامية المدنية تحولت إلى استبداد سياسى والحكم القبلى بعد الفتنة الكبرى وتأسيس الدولة الأموية، ثم تحول الحكم الاستبدادى القبلى إلى حكم دينى سياسى فى الدولة العباسية واستمر هذا النظام سائراً إلى سقوط الدولة العثمانية تحت اسم الخلافة. لقد اصطلح

المؤرخون على تسمية الدولة المدنية الإسلامية بعد النبي بالخلافة الرشيدة أو الرائدة، وأطلقوا على الدولة التالية مسمى الخلفاء فقط أى لم يكونوا خلفاء راشدين - وهذا فى حد ذاته دليل على تحول هائل فى نظام الحكم دفع المسلمون ثمنه غالباً ولا يزالون - وقد تم تدوين التراث فى عصر الخلفاء غير الراشدين، وذلك التدوين تجاهل التدوين الحقيقى لدولة النبي والراشدين، وقام بتدوين ما يتفق وأيديولوجية الدولة الدينية العباسية .

والوظيفة الأساسية للدولة الإسلامية نحو أفرادها إقامة القسط وتوفير الأمن الداخلى والخارجى، وأن أمن المجتمع الداخلى ككل، يعنى أن يكون له جيش قوى يرهب الأعداء من الاعتداء عليه ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠). وهذا الاستعداد لصد العدوان وإرهابه يقع ضمن مشروعية القتال فى الدولة الإسلامية وهى مشروعية تتفق مع القسط والعدالة، فالآيات التى تحض على القتال هى أوامر تشريعية، تحض على القتال فى الدفاع ورد الاعتداء عن المسلمين: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠، ١٩٤). ثم المقصد النهائى للقتال هو أن يكون لمنع الاضطهاد والإكراه فى الدين، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴿ (الأنفال: ٢٩) ومعنى أن يكون الدين كله لله أن يكون بدون كهنوت. وإن الناس أحراراً في اختيار ما يشاؤون من عقائد حتى لا تكون لأحدهم حجة أمام الله تعالى يوم القيامة. إذن فالعدل والقسط هو أساس التعامل مع العدو الخارجي، ويكون بتكوين دولة قوية بجيشها وأهلها، لتؤكد حق المجتمع المطلق في الأمن، كما أن من حق الأفراد النسبي أن يعيش كل منهم آمناً وعلى أساس التساوى، وبعيداً لا يستأثر فرد واحد بالحماية دون الآخر، وحتى لو كان ذلك الفرد هو رئيس الدولة. ورأينا كيف كان عمر بن الخطاب ينام تحت شجرة، ولم نسمع أن النبي في المدينة كانت له حراسة، إذ يتساوى كل فرد مع الآخرين في استحقاق الأمن.



## السلفية المنهجية

يقرر الجابري أن السلفية نوع من المقاومة الذاتية لأمراض داخلية، ومن ثم تتسع عنده حمولة مفهوم السلفى ليشمل فى آن واحد محاربة الاستعمار. ومحاربة البدع والتقاليد الشعبية، والدعوة إلى التجديد والتحديث فى كل مجالات الفكر والسياسة والاجتماع.

ويؤكد أن جميع التيارات السلفية من الحسن البصرى إلى محمد بن عبد الوهاب إلى الأفغانى ومحمد عبده، وإنما كانت أحد مظاهر التجربة التاريخية للأمة، أحد مظاهرها الإصلاحية، إن النموذج المنشود يجب أن يشمل جماع التجربة التاريخية لأمتنا مع الاستفادة من التجربة التاريخية للأمم التى تناضل مثلنا من أجل الوجود والحفاظ على الوجود. وأيضاً ولم لا؟ من التجربة التاريخية للأمم التى أصبحت اليوم تفرض حضارتها كحضارة للعالم أجمع.

ويؤسس رؤيته على أن السلفية كانت كافية وفعالة وإجرائية يوم كنا وحدنا نبني حضارتنا القوية، أما الآن فلا بد من التعامل بمنطق جديد ترضه التغيرات، منطق الحضارة المعاصر، ويتلخص فى مبدأين العقلانية والنظرة النقدية فى الاقتصاد والسياسة والعلاقات الاجتماعية والنظرة النقدية لكل شئ فى الحياة؛ الطبيعة والتاريخ والمجتمع والفكر والثقافة والأيدولوجيا.

وعلى هذا فإن «منطق السلف الصالح» التى تمثل المدينة الفاضلة فى التجربة التاريخية للأمة كان يقوم على أن الدنيا مجرد قنطرة إلى الآخرة، وقد أدى هذا المنطق وظيفة يوم كان العصر عصر إيمان فقط وليس عصر علم وتقنية ومصالح وأيدولوجيات وصراعات دولية وطموحات للهيمنة العولمية.

وهي مقالاته «السلفية غير.. والماضوية غير» يتخذ الجابري من السلفية الوطنية عند علال الفاسي نموذجًا مغايرًا لأنواع أخرى من الفهم تجعل السلفية ماضوية، أي الرجوع إلى الماضي والتمسك به لذاته. واعتبار سلوك السلف نموذجًا صالحًا لكل وقت ولكل مكان. كما هو شأن التيار الحنبلي المتشدد المنسوب إلى ابن عبد الوهاب ومن بعده، وخاصة أتباعه المتشددين الذين طبعوا مذهبه «بالجمود على التقليد» فجعلوا السلفية مذهبًا «ماضويًا» حتى الأعماق، فهو يرى «السلفية الوطنية» أقرب إلى المنهج منها إلى المذهب، ويؤمن قول علال الفاسي «والذي ينظر في تاريخ الحركات العامة في الدنيا كلها يجد أنه لم تقم ثورة مفيدة في بلد ما إلا سبقتها دعوة للرجوع إلى الماضي البعيد ذلك أن الرجوع الذي يظهر في شكل تقهقر إلى الوراء هو نفسه تحرر كبير من أشياء كثيرة وضعتها الأجيال العديدة والعصور المختلفة، والتحرر منها هو تخفيف يسهل السير إلى الأمام بخطى واسعة وإزالتها من الطريق تفتح أفقًا عاليًا يهدي السائرين للغاية الصحيحة التي يجب أن يوجهوا أنفسهم إليها».

ومن ثم يقرر الجابري أن الرجوع إلى نقطة مضيئة في الماضي ليس من أجل الماضي بل من أجل التحرر مما تراكم من انحرافات وظلمات في المسار الذي يفصل الحاضر عن تلك النقطة المضيئة، والهدف من هذا الرجوع ليس التثبيت عند نقطة في الماضي ولا الجمود فيها، بل الهدف هو الانتظام فيها من أجل مواصلة المسيرة من جديد في الاتجاه الذي يمد المستقبل الآتي بسند مما يسميه بالمستقبل الماضي أي الذي كان مشروعًا للتقدم في الماضي قبل أن تجهضه الانحرافات والجمود والانكسارات.

بهذا المعنى يتفق الجابري مع مقولة الفاسي «إنه لم تقم ثورة مفيدة في بلدها إلا سبقتها دعوى للرجوع للماضي البعيد» والمقصود بالماضي

هنا البعيد ليس بالضرورة ذلك الذى يمتد بعيداً عن الحاضر بقياس الزمن، بل المقصود ذلك الذى يقع بعيداً عن الحاضر بقياس التقدم والتخلف.

والجابرى يرى أن دعوة الإسلام نفسها لم تكن سوى توظيف لهذا النوع من السلفية المنهجية فبعد أن يشرح الجانب المنهجي يطبقه على الدعوة المحمدية نفسها، فقد دخلت فى صراع مكثوف وضار مع قوى التقليد التى رفعت شعار «حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا» ولكن بدلاً من أن يتجه الإسلام إلى المستقبل وحده ويحارب الماضى محاربه للحاضر أو يتكرر له جملة وتفصيلاً، طرح على العكس من ذلك شعار الرجوع إلى «الأصل» إلى دين إبراهيم جد العرب، ولكن ليس من أجل استعادته كما كان فى الأصل قبل تحريفه، لقد تم تكثيف الماضى العربى كله فى نقطة واحدة هى ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ﴾ (الحج: ٧٨) والارتكاز عليه لتحقيق قفزة تاريخية يتم من خلالها وبواسطتها تجاوز عبادة الأصنام إلى دين جديد سيحطم أصحابه الأصنام ويقضون على سلطة حماتها.

لقد انطلقت الدعوة الإسلامية والنهضة العربية الأولى من الانتظام فى تراث، لكن ليس لتثبت عنده جامدة ساكنة، بل لترتكز عليه فى عملية تجاوز كل الموروث القديم، وتشبيد تراث جديد.

إن سلفية الأفغانى ومحمد عبده النهضوية كانت نقلة نوعية قياساً مع سلفية محمد بن عبد الوهاب أما السلفية التى تسمى نفسها اليوم بالسلفية الجهادية فهى نقلة نوعية مغايرة ترتبط بالوهابية على صعيد السلف، فهى من هذه الناحية تكوص بالتمسب للسلفية النهضوية الإصلاحية، ولكنها من ناحية أخرى تجاوز لها من حيث قفزها على القطرية والوطنية. وتطلعها إلى التحول إلى عولة مضادة، تجسم ما يسميه الجابرى بالتقيض الخارجى للأمركة (العولة الإمبريالية الأمريكية).



## السلفية الجهادية فى مقابل النزعة الاستعمارية الغربية

لم تبتعد النزعة الاستعمارية فى يوم ما عن الاستراتيجية الغربية للتعامل مع الإسلام والدول الإسلامية، فهذا شيخ المستشرقين «برنارد لويس» ينتهى فى كتابه عن العلاقة المتوترة بين الإسلام والغرب "What went rong" إلى وضع المسلمين أمام مسئولياتهم، فيما الإذعان إلى الحداثة، كما يتحدد مفهومها، وستقيم مدلولها فى بيئتها الغربية الأصلية، وذلك بالإفصاح عن استعدادهم ورغبتهم فى التلمذة على أيدى معلمهم المسيحيين شأنهم فى ذلك شأن اليابانيين وغيرهم من قبلهم، وإما الاستعداد لاستقبال استعمار جديد، يتولى عوضاً عنهم، تحرير عقولهم من قيود التمثه، وتخليص اقتصادهم من قبضة الفساد والانحراف، وعتق نسائهم من تسلط الرجال، وأخيراً إنقاذ مواطنهم من قبضة الاستبداد السياسى وكما أن قراءة هذا المستشرق فى التاريخ والواقع الإسلاميين تحمل القارئ على الاعتقاد بعدم قدرة المسلمين الشرقيين على إنجاز كل ذلك بمحض إرادتهم، فإنها كذلك تحمل هذا القارئ على التسليم بشرعية الحرب والتدخل العسكرى الاستعمارى فى البلاد الإسلامية والشرق أوسطية على وجه الاستعجال، ولا يتخرج هذا الباحث الذى يدعى العلم بشئون الإسلام أن يصور العلاقة المتوترة بين الإسلام والحداثة على نحو يفهم منه ضمناً وأخرى تصريحاً - أن خروج الاستعمار من البلاد الإسلامية كان خروجاً مبكراً، حيث إن الغرب، وإن وفق فى تحرير العبيد والذميين فى هذه البلاد بفضل دخوله إليها، فإنه لم يقم بما فيه الكفاية لتحرير المرأة والثقافة، ويوحى لنا التحليل

الصادر عن هذا الباحث الذي يزعم الإطلاع على دخائل نفوس المسلمين الشرقيين أنه لا بد للاستعمار من كربة أخرى حتى ينجز ما كان يلزم إنجازه في المرة الأولى.

إن في عمل المستشرق «برنارد لويس» ما يجعله يصب في ثقافة التحريب كما ترسم معالمها الكبرى عند «صمويل هنتجتون» صاحب نظرية الصراع الحضاري وأحد الموقعين على رسالة المثقفين الأمريكيين المساندين لاستعمال القوة العسكرية. وإن اختلفت طرائق إعلان الحرب عندهما، فينسجم كل منهما مع طرحه حيث يسلم مقاليد القرار الأخير إلى حكومة يرأسها رجل سبق أن تكرر صراحة للقيم الكونية وللقرارات الدولية.

ولقد درج تعبير محاربة الإرهاب على لسان أفراد من الحكومة الأمريكية بعد أحداث نيويورك، وما لبث هذا المفهوم الجديد أن ارتقى إلى رتبة المفهوم الإجرائي إذ تولى النظر فيه أهل السياسة وأهل الفكر من مختلف أقطار العالم، ويستمد هذا المفهوم الجديد مكونات مدلوله من سياقه الأصلي، وهذا السياق هو على وجه التحديد خطابات رئيس الولايات المتحدة بعد ١١ سبتمبر، وقد بدا فيها متأثراً بالأراء السياسية للمحافظين الجدد وبالمواقف الدينية للمسيحية الأصولية وواقعاً تحت ضغوط رجال المال وأرباب النفط وصناع السلاح.

ونحن إذا تأملنا الخطاب الذي وجهه إلى الكونجرس في ٢٠ سبتمبر ٢٠٠١، وجدنا أن أحد المكونات الدلالية لمفهوم «محاربة الإرهاب» هو «النزعة الماثوية»، وإذا شئت قل النزعة الأثينية ومعلوم أن هذه النزعة في صورتها العامة، تذهب إلى القول بوجود تصارع في العالم بين مبدئين أصليين اثنين لا ثالث لهما، أحدهما مبدأ إيجابي ينبغى العمل على جلبه، والآخر مبدأ سلبي ينبغى العمل على دفعه.

وتجلت هذا النزعة في هذا الخطاب عند الجواب عن سؤال

الأمريكيين «كيف يمكننا أن نخوض الحرب ونتصر فيها؟» إذ يقول صاحبه ما نصه:

«يجب على كل بلد في كل جهة من العالم، أن يتخذ قراره إما إنكم معنا وإما إنكم مع الإرهابيين، ومن الآن فصاعداً، كل بلد يستمر في إيواء الإرهابيين ستعده الولايات المتحدة نظاماً معادياً»، وحينئذ لا عجب أن يرفع بعض الأوربيين شعار «كلنا أمريكيون»، إذ ليس لهم خيار آخر إلا «كلنا إرهابيون» وهكذا يظهر أن المانوية التي يتأسس عليها مفهوم محاربة الإرهاب تأخذ بالتقابل بين ميدأين هما مبدأ النسبة إلى الذات الأمريكية ومبدأ النسبة إلى الآخر الإرهابي، هذه هي المانوية الجديد.

لقد خرجت المانوية الجديدة من مكنها، فهي متأصلة رسخت مع بداية تكوين الولايات المتحدة، التي بنيت على عنجهية منذ أن وجدت وهي تبنى تقدمها على إفناء الأعراق الأخرى وعلى طمس الثقافات والحضارات والفكر المخالف، وطوال حكم كلينتون ومن بعده بوش، والإعلان الأمريكي يطرح العداء المستحکم بين أمريكا وما أطلقت عليه محور الشر، العراق، إيران، وسوريا، وهي لم تخف نيتها في احتواء العراق وإيران وينظر لهذه الفكرة السفير الأمريكي الصهيوني إنديك.

ومهما قيل عن النظام الحاكم في العراق، ومهما تكن دكتاتوريته، وما اقترفه في حق شعبه، ولسنا ندافع عن شخص ولا عن نظام، فالعدوان والعدوان الذي سبقه عام ١٩٩١ وما تلاه من حصار، وقائع تبين أنه لا يمكن تصور دكتاتورية ولا همجية دموية أكبر من التي أفضح عنها بوش الأب والابن معاً وسخرها لها المجتمع الدولي بكامله، أخذنا الشعب بكامله بجريرة نظام، وبوش وشارون ليس أقل دموية ويطشاً ودكتاتورية.

والمتابع لكلمة القس فرانكلين غرانغ أثناء تنصيب الرئيس الحالي، ولخطب بوش منذ وصوله إلى الحكم يلاحظ أنه لم يتوقف عن تكرار العبارات التي تتم عن حقد متجذر للإسلام، مثل أن بوش يحمل رسالة

ومثل «الخير والشر» ومحور الشر، وحروب صليبية، ومن ليس معنا فهو  
ضدنا والحرب على الإرهاب وأن الله بعثه رحمة للبشرية.

وعلاوة على هذا الحقد الدفين الذى يضممره بوش للإسلام، فإن  
الغرب المتقدم يعانى من تبعية مطلقة فى موضوع الطاقة للعالم العربى  
والإسلامى بشكل أساسى، مما يطلب ويتطلب الهيمنة عليه والتحكم فى  
حكاه وشعوبه.

ولقد جاء موقف بوش من شارون ومساندته له والوقوف وراء  
إسرائيل فى محاولة ضرب الانتفاضة قبل ١١ سبتمبر - ومما سردناه  
يتضح تماماً أن الحرب مع الولايات المتحدة كانت آتية لا ريب فيها سواء  
وقعت أحداث ١١ سبتمبر أم لم تقع.

فيوش الابن إلى جانب ما يمثله طاقمه السياسى من أطماع  
اقتصادية يجسد أيضاً التطرف الدينى ولم يعد خافياً أن بوش ينتمى  
لجماعة دينية هى الأكثر تطرفاً تسمى المسيحية الإنجيلية وتضم أكثر  
من ١٦ مليون منتسب، وهى الأكثر تعاطفاً مع اليهودية المتطرفة، والأكثر  
انتصاراً لأطماع إسرائيل فى الشرق الأوسط، وقد حمل بوش إلى البيت  
الأبيض إلى جانب أباطرة الاقتصاد الحربى والنفطى - جماعة التطرف  
الدينى، وإليهم يعود فى كل قراراته.

ويوماً بعد يوم يتأكد للرأى العام العالمى بأننا ننساق عنوة، وتحت دفق  
من الإكراهات السياسية والاقتصادية والعسكرية، إلى عصر المفارقة  
الأمريكية، هذا العصر الذى يحول دون تشكل لتوازن دولى جديد، من  
شأنه - على الأقل فى ظرف هذا الاختلال الدولى لما بعد الحرب  
الباردة، أن يحجم من سيطرة ديكتاتورية القطب الواحد، إذ أصبح هذا  
القطب قوة هائلة لا تخجل من مفارقاتها بل ترى فى كل دعوة تحثها  
إلى التراجع لحدودها الطبيعية تهديداً واعتداءً، فلقد كانت المرحلة  
السابقة قبل انهيار الاتحاد السوفيتى، مليئة بالعثرات التى حالت دون

تحقيق الدولة العظمى لحلمها في أن ذلك القرن قرن أمريكي بامتياز، وهو قرن مثقل بمواقع وآلام راح ضحيتها ملايين من البشر، لكنهم راحوا عبثاً ليظل السؤال حياً في الأذهان! ما الذي تغير بالفعل خلال هذه الحقبة من سياسات النفوذ والأطماع الإمبريالية؟

إن المعركة كانت آتية لا ريب حتى ولم تقع أحداث ١١ سبتمبر، وذلك بسبب الأفعال الفاضحة للمفكرين والمثقفين العملاء الذين أصروا في دعواتهم على سحق كل مقاومة عربية للتدخل الأمريكي الساهر في شئوننا وفي محاولة فرض النفوذ الإسرائيلي على المنطقة العربية.

لقد أثبتت الأحداث الأخيرة التي تمر بالأمة العربية بعد انحراف القيادة المصرية في أعقاب مؤتمرات كامب ديفيد واتفاقيات السلام مع إسرائيل، أن أغلب نخبنا الذين انتدبتهم وكالات الاستخبارات والاستعلامات الأمريكية للتبشير برسالة أمريكا التحضيرية، يسعون إلى تدعيم حرب أمريكا النفسية محاولين إقناع الرأي العام العربي بأن القوة الأمريكية قوة لا تقهر، وأن على المرء أن يحوّل قبل الاستسلام بل أن يحمّل لبدء الاندماج في المخطط الأمريكي لتحقيق التحضر - وربما لا توجد نخبة أو معارضة صادقة يصدق المنتسبين إليها تقول بأن الاستعمار يمكن أن يكون قوة تحرير فضلاً عن التحضر إلا بين علماني العرب الذين يجمعون بين بواقي الاستعمار القديم ممثلة في مزاعم التوير الفرنسى والغربى بوجه عام المعتمد على التبشير الكاثوليكي والشيوعي وإرهابات الاستعمار الجديد ممثلة في أوام الديمقراطية الأمريكية المعتمدة على المعدانية والليبرالية.

وقد انضم إلى هذا الجوق كل الذين سيطر عليهم حال الانهزام أمام الحرب النفسية التي صاحبت المفاطات الإعلامية للمعركة الحالية تصوروا أمريكا على أنها قد انتصرت فيها انتصاراً ساحقاً وليس من العجيب أن يكون المعلقون العرب في التلفزات العربية الرسمية أكثر

حزماً في حديثهم عن التصر الأمريكي من الأمريكيين أنفسهم. وإذا أنهم في الحقيقة يعبرون عن نفس الموقف الذي كان يدعو إلى الحسم الحربي السريع، وبات يعبر عن قلب الصفحة الأسرع تخوفاً من طول المعركة وما قد يؤدي إليه من نتائج على الأنظمة التي تمول هذه التفزات.

كان المواطن العربي يرى النخب السياسية التي تهيم الآن بالديمقراطية البرجوازية هيأماها السابق بالديمقراطية الشعبية يواصلون الحديث عن قوة أمريكا التي لا تقهر، ويرى الحكام العرب خاضعين تماماً للمشينة الأمريكية، وهب البعض رافضاً لما يجري ولم يدعن لأنظمة حصرت المجتمع في الدولة، والدولة في النظام، والنظام في شخص الزعيم، وبات يصبو إلى تحرر الدولة من نظام غير شرعي، وتحرر النظام من زعامة مستتدة إلى القوة المادية لا إلى القوة الروحية وعلامة ذلك بداية عودة النظام والمقاومة من المساجد دون سواها لكونها الخير الوحيد الذي تتحدد فيه الدولة والمجتمع في مفهوم الأمة التي تسكن قلوب الجميع ولا يقتصر وجودها على التعيين المادي للجهاز الذي سرعان ما ينفرط عقده بموت الزعيم، ولعل ذلك يفهمنا دلالة الفتنة الكبرى، فرغم اغتيال ثلاثة خلفاء وحدوث خمسة حروب أهلية من قتل الخليفة عثمان إلى القضاء على فتنة ابن الزبير لم تنكسر الأمة بل حققت بعد ذلك ما نسميه اليوم دار الإسلام.

وتجلت المقاومة للأوضاع المهينة التي وجدت الأمة نفسها فيها في ظهور الجماعات الإسلامية الجهادية.

وليس غريباً أن ظهر تنظيم القاعدة بقيادة بن لادن وتبدأ المعركة مع أمريكا والصهاينة، وتظل انتفاضة الفلسطينيين البواسل، والمقاومة العراقية لتعبر عن بداية حرب طويلة حتى تنهي الأسطورة الأمريكية التي تتحدث عن انتصارات في حروب سابقة وتبشر بالنصر في الحرب العالمية الحالية.

## الاستشراق وإعلان الحرب ضد المسلمين

وقد بدأ الاستشراق الأمريكي عملياً بعد الحرب العالمية الثانية عندما وجدت أمريكا نفسها مضطرة لتحل محل بريطانيا في المشرق العربي، ويشير مايكلز كويلاند ضابط المخابرات الأمريكي إلى أن بريطانيا حينما قررت التخلي عن مركزها في الشرق الأوسط طلبت من أمريكا أن تحل محلها، وقد وجدت أمريكا رصيدها من معرفة الشرق الإسلامي ضئيلاً جداً، فحاولت الحكومة الفيدرالية استدراك هذا العجز، حيث أصدر مجلس الشيوخ مرسوماً عام ١٩٥٨م تحت مسمى «مرسوم مجلس الدفاع المدنى القومى للتعليم» كان له أثر كبير في تشجيع الاهتمام بالدراسات العربية والإسلامية، وفي عام ١٩٦٥م، أصبحت اللغة العربية تدرس في خمسة عشر مركزاً، وتأسست عام ١٩٥٩ الرابطة الأمريكية لدراسة الشرق الأوسط.

وفي عام ١٩٦٤ - ١٩٦٥ بلغ عدد الجامعات الأمريكية التي تقدم برامج دراسات عليا حول الشرق الأوسط أكثر من ثمانى وعشرين جامعة، تحتوى برامجها على ٨٥٠ مادة، ويصل عدد الأساتذة العاملين بها إلى أكثر من ٣٠٠ أستاذ.

لقد خططت الولايات المتحدة لدورها الاستعماري الجديد بعناية، ووظفت الاستشراق ورسمت لذلك ما أسمته «سياسة العلاقات الثقافية»، وقد أفصح «مرتيمر جراف» عن جانب هذه السياسة الثقافية قائلاً: «إن العملية الهائلة لجمع المطبوعات المتميزة في لغات الشرق الأدنى الصادرة منذ ١٩٠٠ وحتى اليوم، والنظر فيها وفحصها إجراء يتعلق بالأمن القومى الأمريكى، وهو من أجل فهم أمريكى أفضل للقوى

التي تتأذى أو تتنافس الفكرة الأمريكية وأهم هذه القوى الإسلام،  
ومنذ ذلك الحين تمحور النشاط الاستشراقى الأمريكى حول السبل  
التي تتيح للولايات المتحدة بسط هيمنتها على المنطقة العربية والعالم  
الإسلامى فأصبح كل ما يطلب من الاستشراق أن يؤديه هو مساعدة  
المؤسسة الأمريكية على إنجاز تطلعاتها فى الهيمنة على مقدرات الشرق  
وضمن الحماية الكاملة لإسرائيل.

وأولى المستشرقون المعاصرون فى الولايات المتحدة رعاية فائقة  
لدراسة الأوضاع القائمة فى الدول العربية منذ قيام إسرائيل حتى الآن  
وذلك لتلبية احتياجات وتطلعات السياسة الأمريكية فى هذه المنطقة،  
كما احتل الاهتمام بإسرائيل مكانة خاصة فى الاستشراق الأمريكى  
المعاصر انطلاقاً من أهمية الدور الوظيفى الذى تؤديه إسرائيل فى  
تنفيذ الاستراتيجية الأمريكية حيث انصبت غالبية نشاطات المستشرقين  
الأمريكيين على مجالات الأبحاث الصراعية باتجاه تعزيز مواقع  
إسرائيل على جبهة المواجهة مع العرب.

وأصبح هؤلاء المستشرقون ممن يطلق عليهم عادة «خبراء شئون  
الشرق الأوسط»، يلجئون إلى تقديم الخدمات المباشرة إلى صانعى القرار  
فى التحالف الإسرائيلى الأمريكى وتزويدهم بالمادة البحثية المناسبة.  
ونجح اليهود فى تهويد المسيحية الغربية بإقناع المسيحيين أنهم أقرب  
الناس إليهم، لذلك تم الاتفاق بينهم على ضم التوراة إلى الإنجيل باعتبار  
أن التوراة هى كتاب العهد القديم، والإنجيل هو كتاب العهد الجديد،  
وسمى الاثنان بالكتاب المقدس، وبذلك أفلح اليهود فى جعل المسيحيين  
تبعاً لهم يأترون بأمرهم فى أمور الدين، فسهل التسلط عليهم فى أمور  
الدنيا.

وعلى المستوى العام ترجم الأصوليون المسيحيون الأوروبيون  
والأمريكيون عقديتهم إلى عمل، فشعروا أن من واجبهم لعب دور عملى

نشط في تحقيق النبوءات وتسريع المجيء الثاني للمسيح، سعياً وراء إنشاء المملكة الألفية السعيدة التي تتبأ بها يوحنا العراف في رؤياه. ولم يكن هذا الحماس المتجدد منحصراً فقط على المستوى الشعبي، ولا على مستوى الكهنوت والدعاة، ولكن تجاوزه إلى الزعماء السياسيين وكبار القادة والمستعمرين والأكاديميين.

فقد كان الأمريكيون الأوائل في هجرتهم من أوربا إلى أمريكا يشبهون أنفسهم بقبائل بنى إسرائيل التائهة، ومن قبيل المجاز أو الاستعارة، قارتوا المحيط الأطلسي بصحراء سيناء، والأرض الجديدة بأرض كنعان الموعودة.

ولما كلف كل من الرئيسين الأمريكيين السابقين جون آدمز وتوماس جفرسون - ضمن لجنة لانتقاء شعار للأمة الأمريكية الجديدة، أوصى كلاهما أن يكون الشعار: صورة النبی موسى وهو يقود اليهود الهاربين من فرعون مصر، ورأى الدبلوماسي الأمريكي بنيامين فرانكلين أن يكون الشعار: صورة موسى وهو يشق البحر الأحمر بعصاه.

ولما كانت الخطة الإلهية عند الغرب تقتضى المجيء الثاني للمسيح، فيلزم بالضرورة أن يسبقه «الشعب المختار» إلى فلسطين تمهيداً لعودته... فالمسيح لن يعود إلى فلسطين إلا إذا عاد اليهود إليها حسب اعتقاد الأصوليين المسيحيين، وذلك لأن نهاية التاريخ التي تتبأ بها بولس منذ ألفى عام تركز أولاً وآخرًا على إنشائه وطن يهودى في فلسطين يستطيع المسيح أن يعود إليه.

والأكثر عجباً أن المسيحية الغربية - موجهة من قبل الاستشراق العنصرى - لم تبال حتى يومنا هذا من تحقق المجيء الثاني، وحتى في أمريكا القرن العشرين نجد ما لا يقل عن ٣٥% من سكان الولايات المتحدة الأمريكية، بمن فيهم الرئيس الأسبق ريجان، يؤمنون بأن المجيء الثاني للمسيح، ونهاية التاريخ على وشك الحدوث، فلا غرابة والحالة

هذه أن يتمكن «هال ليندسى» من كتابة (كوكب الأرض العظيم الفاتت)، والذي حدد فيه النبوءة بنهاية التاريخ، وجزم أن العالم حالياً يعيش فى مناخ مهياً لظهور عدو المسيح الأكبر الذى رمزت إليه الرؤيا برقم ٦٦٦ (رؤيا ١٨/١٣).

كما أن الكثير من الأمريكيين الذين كانوا فى السابق معادين لليهودية بحجة أن اليهود رفضوا المسيح وقتلوه - بزعمهم - تحولوا إلى أنصار متحمسين لليهود وإسرائيل، نظراً للدور الذى يفترض أن يقوم به اليهود فى خطة المجيء الثانى وتحقق النبوءات.

وأصبح من يعتبرون أنفسهم حجاجاً إلى فلسطين من المسيحيين الأمريكيين، يضعون على صدورهم لوحة صغيرة كتب عليها «نحن نجيبك يا إسرائيل لأن الله يجيبك».

والواضح أن الوعاظ الأصوليين من أمثال «جيرى فالويل» نجحوا فى أن يجعلوا من رؤيا يوحنا نوعاً من التقديس لإسرائيل.... فكان أن تكيفت السياسة الأمريكية نحو الشرق الأوسط عموماً ونحو فلسطين خاصة إلى درجة أن جعلت مصير أمريكا مرتبباً بمصير إسرائيل، وقد قال «فالويل» «ما يشبه ذلك: لو أهملنا إسرائيل فلن يكثرث بنا الله»، وباختصار فقد أصبحت إسرائيل هى العمود الفقرى للعقيدة المسيحية الأصولية فى الغرب.

والمخيف أن زعماء الأصولية يتغلغلون فى السياسة الأمريكية لدرجة أن الواعظ الأصولى المشهور «بات روبرتسون» رشح نفسه للرئاسة الأمريكية عام ١٩٨٨م، والمشهور عن هؤلاء اعتقادهم بضرورة نشوب حرب نووية، أو حرب عالمية ثالثة، مادامت تمجىء المسيح، وقد صرح وزير الداخلية الأمريكى جيمس وايط أمام مجلس النواب قائلاً: «إنه باعتبار العودة الوشيكة للمسيح ونهاية العالم، فليس من مبرر للقلق على البيئة، ولا التذمر من تخريب الموارد الطبيعية والبيئية».

وكذلك كان تصور كل من الرؤساء الأمريكيين (وودرو ولسون، وهاي ترومان، وجيمى كارتر، ورونالد ريجان).

وقد كانت وما تزال تصريحات الإدارة الأمريكية تعبر عن انحياز غريب لإسرائيل لا يمكن فهمه إلا فى إطار الخلفية الصهيونية التى استطاع الاستشراق الأمريكو-صهيونى أن يرسخها فى الذهنية المسيحية، وفى عام ١٩٩٨م، صرح مارتن إنديك مساعد وزير الخارجية الأمريكية قائلاً: «إن تعبير الوسيط المتوازن بين إسرائيل والعرب لا وجود له فى القاموس السياسى الأمريكى، لأن العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل خاصة جداً».

ونتيجة لهذه العلاقة الخاصة جداً، الدينية جداً، تضع أمريكا تحت تصرف إسرائيل مواردها الاقتصادية الهائلة، وألتها الحرية الضخمة، وتستعمل حقها فى نقض ما أجمع المجتمع الدولى على صوابه، باستخدامها للفتوى، ضد شعب أعزل أكثر من نصفه مهجر..

### الاستشراق الأمريكو-صهيونى والعراق

وصف العراق فى الكتب اليهودية القديمة بأقبح الصفات، ونعت يوحنا العراف بابل فى رؤياه، بأنها «أم العاهرات ونجاسات الأرض»، ومنذ ذلك، أصبحت بابل (العراق) رمزاً لكل رذيلة، ولكل شىء بغيض عند اليهود وعند الأصوليين المسيحيين، وما من شك فى أن يوحنا العراف كان متشريعاً روح العهد القديم، فى النص الحاقد الذى يتحرق فيه شوقاً لسحق رموس الأطفال البابليين بالحجارة، فقد جاء فى المزامير ٨/١٢٧-٩ «طوبى لمن يجازيك يا بابل كما جازيتنا، طوبى لمن يمسك أطفالك ويسحقهم على الصخور».

ومنذ قام يوحنا بوصف بابل فى رؤياه بـ «أم العاهرات ونجاسات الأرض» أصبح العراق مرتبطاً فى أذهان اليهود والمسيحيين الأصوليين

فى الغرب بكل أوصاف الرذائل والفساد..

واليوم نجد فى الغرب وفرة فى الكتب التى تصرح بالعلاقة بين عراق اليوم وبين بابل أم العاهرات ونجاسات الأرض، ومن أشهرها:

كتاب شارل تايلور «صدّام بابل العظيمة».

- وكتاب شارل داير «صعود بابل»، الصادر عن ندوة دالاس اللاهوتية، وعلى غلافه صورة صدّام حسين.

وحتى بعد هزيمة العراق، وقتل الملايين من أطفاله وسحقهم وتدمير بنيانه، مازال شارل تايلر يعتقد «أن العراق قد يبرز من جديد بدور بابل أم العاهرات، وأن صدام نفسه قد يعود إلى الظهور بصورة وحش الرؤيا عدو المسيح».

فلا يستغرب أن تستمر العقوبات الصارمة على العراق، لأنها فرية دينية يتقرب بها المسيحيون الأصوليون لليهود وللرب، آملين أن تتحقق رؤيا يوحنا راكبين ظهر الولايات المتحدة المقتتعة برؤيا يوحنا والمترسخة فى أذهان وأرواح المستشرقين الأمريكيين على مدى القرون.

وهكذا يقدم الاستشراق الأمريكى المعاصر وجهاً جديداً ودليلاً آخر على التدنى الذى وصل إليه الاستشراق عبر العجرفة والاستخفاف بالقوانين الدولية والأعراف، ونهج سياسة الاستعلاء والفوقية، وتمييط البشرية باتجاه معالم الرجل الأبيض. ومن أقرب الأمثلة وأبسطها، تمكين الصهيونية وكيانها العنصرى فى فلسطين لمواصلة المسلسل الاستعمارى الذى سنه الغرب فى ديار الإسلام.

«الحرب تدور حول الأفكار والألفاظ.. من الصعب على الأمريكيين، بوجه خاص، أخذ تلك الرابطة فى الاعتبار، لأنه يبدو أن البلد ككل لا يعتقد فى أهمية الألفاظ والأفكار. لكن كيفية قراءة الأصوليين لكتبهم المقدسة خلال المائة عام القادمة ستصبح مسألة حياة أو موت للملايين».

## بن لادن الأسطورة(\*)

كنت جرام، ١٩٩٩:

«صورة بن لادن التي تتضح، هي صورة أكثر ثراءً وتعقيداً وتحديداً من الكاريكاتير المبسط له كشخص متعصب تملؤه الكراهية، لا عقل له، يقول تي. إي، لورنس «هؤلاء الذين يحلمون بالليل يستيقظون بالنهار ليجدوا أحلامهم تافهة! لكن من يحلمون بالنهار أناس خطرون، لأنهم قد ينفذون أحلامهم بأعين مفتوحة.. يجعلونها ممكنة»، وبين لادن حقاً. أحد الخطرين الذين وصفهم لورانس».

بروس هوفمان، ٢٠٠١

كلما انتشرت الشائعات عن شريط جديد لبن لادن سُرّب إلى «الجزيرة» أو «العربية» تسرى ارتعاده إثارة وقلق في الجهات الرسمية الأمريكية. يبدو الأمر وأن مجرد كلمات الرجل قد أصبحت تهديداً للوطن.. على أية حال، سرعان ما يُبث الشريط، وقبل انتهاء جملته الأخيرة تتطلق انفجارات غضب واستهجان من المسؤولين الأمريكيين. وتتقضم حملة مكثفة من الخبراء الطبيين والقانونيين الشرعيين على آخر إنتاج للقاعدة. تتهم وزارة الخارجية الأمريكية القناة الفضائية العربية بعدم المسؤولية لبثها رسالة من إرهابي، ويتبعها المسؤولون الأمريكيون. وفيما يستمر هذا الغضب العلني يفحص الخبراء الحكوميون والإعلاميون الشريط ويطلب منهم الإجابة عن أسئلة يقصد بها أن تبدو الولايات المتحدة أكثر أمناً. مثلاً: هل لحيته أكثر طولاً؟ انتشر بها المشيب؟ انظر، إنه لا يحرك كتفه الأيسر، هل هو مصاب؟ أم في

(\*) نشر هذا المقال في مجلة سطور.. العدد (٩٦)، نوفمبر ٢٠٠٤  
عن كتاب أمريكي مجهول (لم ينكر اسمه)

سبيله إلى الموت؟ هل هذا صوته؟ وهل يشرب ماء أكثر من المرة السابقة؟ هل يعنى هذا أن كليتيه فى طريقهما إلى الفشل؟ أها! إنه يستعين بعضا فى السير! أصيب ظهره؟ وماذا عن نوع الأحجار فى الصورة؟ استدع الخبراء الجيولوجيين! أتوجد تلك الصخور فى أفغانستان؟ وماذا عن نوع أزهار الربيع تلك؟ انظر، ماذا عن شجرة التوب إلى اليسار؟

أيمكن تحديد مكانها؟ أهو أكثر شحوباً؟ هل يرتدى الملابس الأفغانية أم العربية؟ ماذا عن الطيور التى تغرد فى الخلفية؟ استدع خبيراً فى الطيور! هل هذا الذى يتدلى من حزامه رمح؟ لماذا لا يحمل رمحاً؟ لماذا يرمش بعينه؟ أمن الممكن أن يكون ذلك أمراً بالهجوم؟ استدع أحداً ما لفك شفرة رمش العينين! ماذا عن...؟

ووسط تلك الصاعقة فإن كلمات بن لادن هى التى يتم تجاهلها فى الشريط تحت الفحص.

وحقاً، لم يبذل الإعلام الأمريكى أو الغربى أى جهد متسق لنشر كلمات بن لادن، ومن ثم فشلوا فى أن يعطوا جمهورهم الكلمات التى تضع أفكاره وأفعاله فى سياق ثقافى وتاريخى، والتى لابد أن تزيد من وعى الغرب بالتهديد القاتل الذى يمثله الرجل. جُمَل بن لادن، التى يتحدث بها بهدوء ويتحدد تترتب ببطء على بعضها، تكرر وتشذب تيمات راسخة منذ وقت طويل، وتأخذ فى الاعتبار الأحداث العالمية والأفعال الأمريكية الحديثة. تحدث بن لادن على مدى أكثر من عامين منذ ١١ سبتمبر على فترات متباعدة نظراً لظروف الحرب من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه يعلم أهمية الصمت، وهى معرفة فُقدت منذ زمن بعيد فى الغرب، خاصة فى واشنطن، حينما يتحدث، يستخدم تيمات قديمة وحديثة. الاستمرارية واضحة جداً فى أوصافه للهجمات على الإسلام التى تتطلب الوحدة الإسلامية، والجهاد الدفاعى، والدور الأكبر

له وللقاعدة في الحث على الجهاد، ودعوة إلى كل مسلم أن يساعد في الجهاد بقدر استطاعته، ودعائه لله أن يهدي الشباب إلى الطريق القويم، يركز على الأهمية الحيوية للإبقاء على الولايات المتحدة هدفًا رئيسيًا للجهاد المسلح، وعلى واجب العالم الإسلامي المُلا عمر وطالبان في استعادة أفغانستان. تحوى تيممات بن لادن الخطابية الجديدة تحذيرات لحلفاء أمريكا بالتوقف عن دعمهم الولايات المتحدة في إجراءاتها في العالم الإسلامي، واستحسنًا للهجمات المحدودة الإسلامية على الأنظمة الإسلامية «المرتدة»، وإدانات لرجال الدين المسلمين لدعم النظم التي تساعد أمريكا، وخطابات مباشرة لمواطني الولايات المتحدة. أخيرًا، يوضح خطاب بن لادن بعد ١١ سبتمبر أنه يعرفنا، ويعرف ردود أفعالنا بدرجة تفوق كثيرًا معرفتنا به.

### الإبقاء على التيممات الرئيسية

بالنسبة لبن لادن، فإن هجمات الصليبيين العدوانية على الإسلام هي الأمر الرئيسي. تعتمد مصداقيته الدينية في دعوته إلى جهاد دفاعي على إقناع المسلمين أن الإسلام يتعرض لهجمة من قبل قوى لا إسلامية يميزها بن لادن على أنهم الصليبيون المسيحيون واليهود بقيادة الولايات المتحدة، ولسوء الحظ، فإن سياسات الولايات المتحدة وأفعالها تقدم للمسلمين برهانًا لا يقبل الشك على ما يصفه بن لادن بأنه محيط من القمع، والظلم، والمذابح، والنهب التي تنفذ ضد الأمة الإسلامية، لذا يقول للمسلمين: إن الدين يأمرنا بالدفاع عن أنفسنا ضد الولايات المتحدة. فهذا جهاد دفاعي لحماية الأرض والشعوب. ماذا يشكل، في نظر بن لادن، هذا الطوفان من الكوارث التي ينزلها الصليبيون بقيادة الولايات المتحدة بالمسلمين؟ أخشى أنه مُحق على الأقل في الأسلوب الذي يرى به إخوانه في العالم الإسلامي يهاجمون من قبل الولايات المتحدة، يقول بن لادن: إن العدو المتوحش لا يحتاج إلى وثائق أو ذرائع

لمواصلة الحرب التي بدأها منذ عقود، كان هذا رده على ناقديه الذين قالوا: إن الوصايا الأخيرة لمن قاموا بهجمات ١١ سبتمبر كانت وثائق سمحت للولايات المتحدة بتبرير حربها على الإرهاب، تساءل أيضاً، ما هي، بحق الله، الوثائق التي تُدين الشعب الفلسطيني وتبرر المجازر ضده التي استمرت لأكثر من عقود خمسة على أيدي الصليبيين واليهود؟ وما الدلائل ضد الشعب العراقي التي تبرر حصاره وقتله بأسلوب غير مسبوق؟ وما الوثائق التي جرمت المسلمين في البوسنة والهرسك وبررت للصليبيين الغربيين وعلى رأسهم الولايات المتحدة إطلاق حلفائهم الصريبيين لإبادة الشعب المسلم في المنطقة واقتلعه تحت غطاء من الأمم المتحدة؟.. ماذا فعل المسلمون في الشيشان، أفغانستان، وجمهورية وسط آسيا الإسلامية ليبرر غزوهم بواسطة النظام العسكري السوفييتي الوحشي وقتلهم وإبادتهم واقتلاعهم؟ ماذا كان لدى الولايات المتحدة من أدلة يوم غزوها أفغانستان وقتلتها واقتلاعها المسلمين هناك؟ لقد فرضت، حتى قبل هذا حصاراً ظلامياً على الأفغان تحت غطاء الأمم المتحدة..... يقول: إن كل المسلمين الذين تبدهم الآلة الدولية الصليبية اليهودية لم يرتكبوا جُرمًا سوى قولهم الله ربنا.

إدانة بن لادن واقعية، رغم ما يشوبها من اعتقاد بصفية الغرب على المسلمين. كل ما ذكره من صراعات قد حدثت أو أنها مازالت مستمرة - والأهم أن تصويره إياها على أنها هجمات على الإسلام والمسلمين، تلقى قبولاً تاماً في أنحاء العالم الإسلامي، وحينما يواجه بن لادن بما يصفه على أنه الهجمة الصليبية فهو مصيب عقائدياً في ادعائه أن الاستجابة القائمة على تعاليم القرآن هي الجهاد الدفاعي. يذكرنا برنارد لويس أن المسلمين لا يؤمرون بإدارة الخد الأيسر، أيضاً كتب جيمس تيرنر جونسون الباحث الأمريكي في شئون الحرب الإسلامية أنه رغم وجود أساليب عديدة للجهاد .. فقد اعتبر المُشرعون الإسلاميون الجهاد

بالسيف ضروريًا لأن «دار الحرب» (الولايات المتحدة في هذه الحالة) تقرر نفسها على دار الإسلام... صاغ بن لادن هذا الرأي في خطابه عام ٢٠٠٢ إلى الشعب الأمريكي. تساءل «لماذا نشن الجهاد ضدكم؟ الإجابة هي أنكم قد هاجمتمونا وأنكم مستمرون في الهجوم علينا».

حفز المؤمنين بعد أن عرف بن لادن الخطر على الإسلام بأنه هجمات الصليبيين بقيادة الولايات المتحدة ووصف الجهاد الدفاعي كاستجابة صحيحة وحيدة، ينظر بن لادن إلى القاعدة على أن لها دورًا مهمًا تقوم به - أو وفقًا لوصف الظواهرى فهي «خط الدفاع الأول عن الأمة الإسلامية التي قررت أن تحارب حتى النفس الأخير وألا تستسلم لجرائمكم وشروركم». بالنسبة لبن لادن، لا ترجع أهمية القاعدة إلى إسهامه أو إسهام مجموعته في قدراتها العسكرية، فهو يؤكد دائمًا أن القاعدة وحدها لا تستطيع تحقيق انتصار للمسلمين. لكن بن لادن يرى أن مسؤوليته الأولى هي حفز المسلمين على المشاركة في الجهاد الدفاعي، ومساعدة هؤلاء الذين يتطوعون وتدريبهم. يقول بن لادن: إن القاعدة أخذت على عاتقها مهمة الحفز على أساس النموذج الذي أرساه القادة المسلمون الأوائل ويبين أن الله أمر به الرسول، خير الأنام. من ثم يؤكد بن لادن على أهمية تعريف الأمة بما هو مطلوب وإيقاظ المسلمين. وكما قال في رسالته بُعيد ١١ سبتمبر فإن واجبه هو إخبارهم بما هو خير لهم. فالقاعدة قد أنشئت لشن الجهاد ضد الكفرة، وخاصة لمجابهة هجمة الدول الكافرة ضد الدول الإسلامية. قال أيضًا: إن الجهاد هو الفريضة السادسة الغائبة (غير المعلنة)... وتريد القاعدة أن تبقى على عنصر إرعاب الآخرين هذا حيًا، وتجعله جزءًا من الحياة اليومية وتضفي عليه مكانة العبادة.

يُصرُّ بن لادن على أن على كل مسلم أن يلعب دورًا في الجهاد لأنه فرض عين لا فرض كفاية. يحتاج بن لادن، بمنطقية، أنه اتخذ دور قيادة

الحرب ضد الولايات المتحدة لأن أكثر رجال الدين أهمية قد اعتقلوا في دول الشرق الأوسط والولايات المتحدة، فإن العلماء المسلمين والمشرعيين ورجال الدين، في الأحوال العادية، هم من يقودون صفوف المعركة. وبما أنه عاجز عن فك أسرهم، ويغضبه ما يقوله رجال الدين الذين يعملون في خدمة الأنظمة السياسية الإسلامية وأمثالهم، فهو يذكر الآخرين بواجبهم. وكتب قائلاً: إن الجهاد فريضة على الأمة جميعاً. وإن الأمة ستظل مذنبية إلى أن تقوم بتكريس أبنائها، ثرواتها، قوتها حتى تستطيع شن الجهاد والدفاع ضد شرور الكفار في فلسطين والأماكن الأخرى. أيضاً، يرى أن الواجب الأول هو قول الحق للأمة وأن أهمية ذلك الواجب تتأتى من أفعال الخداع والتضليل الخطيرة التي يمارسها علماء السلطة ورجال الدين ممن هم في خدمة الحكام.

يُذكَرُ بن لادن عامة المسلمين أن لكل دوره الذي حدده الله له. وهذا يعنى وفقاً لما ذكره أبو أيمن الهلالي في «الأنصار» في مارس ٢٠٠٢ أن بوسع كل فرد من الأمة المشاركة وفقاً لموقعه وقدراته مستغلاً لكل السبل المتاحة من التفجيرات والمقاطعة والحفز والأسر والتمويل والتوير والدعاء والاعتقال. مثلاً، وفيما يستشهد بن لادن بحملة الإعلام الفري الشريفة ضد الإسلام، يدعو الناشرين والمذيعين المسلمين للقيام بدورهم في مواجهة الرسائل الغريبة المسموعة والمرئية والمكتوبة. كما يدعو أثرياء المسلمين إلى المشاركة بأموالهم للدفع بعجلة المعركة باتجاه هدفها المبتغى. يستحث بن لادن النساء المسلمات أيضاً للانضمام إلى المعركة غير المقصورة على الرجال ويذكرهن بما فعلته البطلات المسلمات الأوَّلِيَّات، وأيضاً تلك اللاتي دهنن بأبنائهن للجهاد في فلسطين ولبنان وأفغانستان والشيشان، وأيضاً بما فعلته وتعمله البطلات المقاومات في فلسطين اللاتي لم يقتصرن على الدفع بذويهم بل قمن أيضاً بالتضحية بأنفسهن.

يُقى بن لادن أيضاً على حوارهِ الذي استمر طوال عقد من الزمان مع شباب المسلمين، ذلك الحوار الذي اتخذ منحى جديداً بعد ١١ سبتمبر، حيث توقف عن توجيه اللوم لهم وأخذ يشيد ببطولاتهم ويتسارعهم للالتحاق بصقوف المجاهدين. وحقاً، فإن حفاظ واشنطن على سياسة الأمر الواقع حيال العالم الإسلامي ومنحها الضوء الأخضر دائماً لإسرائيل في هجماتها ضد الفلسطينيين كان لابد وأن يدفع بالشباب إلى التطوع للجهاد حتى ولو لم يجد بن لادن ولو لم يتم غزو العراق. بالنسبة لبن لادن، فإن أكثر آليات التطوع فاعلية هي أن تظل الولايات المتحدة تفعل ما ظلت تفعله في العالم الإسلامي طوال السنوات الثلاثين الماضية. إن غزو العراق وما تبعه من تمرد ومقاومة هو كسب عظيم للقاعدة.

قرار بن لادن بتغيير لهجة خطابه للشباب تبدو محاولة مقصودة لجعل عادة التحاق الشباب بصقوف المجاهدين أمراً مؤسساتياً. فرسالته هو أنه يمكن الآن الاعتماد على الشباب المسلم كمدافعين عن الأمة وأن الأجيال القادمة سيحذون حذوهم.

لا يلجأ بن لادن فقط إلى استخدام فكرة كونهم جزءاً من التاريخ الإسلامي لحفز الشباب على الانضمام لصقوف المجاهدين، بل أيضاً يُعول كثيراً على النموذج الذي أرساه المهاجمون في ١١ سبتمبر. أعتقد أن الغرب يسيء تماماً تقدير مدى الإعجاب والاحترام وحتى الحب الذي حظى به هؤلاء خاصة بين شباب المسلمين، لقد ظللنا لسنوات عديدة في الغرب نشهد أفعال «الانتحاريين» الفلسطينيين وننتهي إلى أن هؤلاء الشباب والشابات شخصاً مأساوية، ضحايا للفقر، والتعليم السيئ، والبطالة واليأس وغسيل المخ من قبل القادة السياسيين والدينيين، الوصفة بسيطة: في الغرب، يعتقد أن اليأس وفقدان الأمل والخوف والأمراض العقلية هي مسببات الانتحار ونفترض أن هذا ينطبق أيضاً على المسلمين.

نحكم على «الانتحاريين» وعملهم كظاهرة سلبية قياساً على خبرتنا ومن خلال أعيننا الغربية فقط، من ثمّ فشلنا أن نعرف أن أعداداً كبيرة من المسلمين ينظرون إلى هؤلاء الفلسطينيين على أنهم شهداء أبطال يضحون بأنفسهم في سبيل قضية أعظم كثيراً من أنفسهم، تضحية بالنفس، وطنية واستشهاداً، تستحق الاحترام بل والتصميم على محاكاتهم. بالإضافة، يعتبر المسلمون هذا استجابة عسكرية عادلة للاحتلال الإسرائيلي الذي دام أكثر من خمسين عاماً، ونفى ثلاثة أجيال من الفلسطينيين إلى مخيمات اللاجئين.

صعدت هجمات ١١ سبتمبر العمليات «الانتحارية» إلى مستوى أرفع، بحيث ركز بها اهتمام العالم الإسلامي على المعركة المستعرة بين الصليبيين وحلفائهم الصهانية والمدافعين المجاهدين. فيما نظر الغرب إلى الذين قاموا بالهجمة على أنهم أشرار، قتلة متوحشون أرادوا فقط قتل الأبرياء، وحُكم على الهجمة مرة أخرى على أنها نتيجة لليأس وغسيل المخ. لكن إذا حُلت الأحداث من أعين وأذان المسلمين الذين يؤمنون أن الدفاع عن العالم الإسلامي والعقيدة يتطلب من المرء التضحية بالذات في سبيل الله وسبيل إخوانه المسلمين لثم النظر إلى شريط بن لادن الذي أعلن فيه أن أولئك الفتية، دُرِّبوا وجُهِّزوا لكنهم لم يعلموا بتفاصيل العملية حتى قبيل صعودهم على الطائرات من منظور مختلف. فيما اعتبر الغرب ما قاله بن لادن استفلالاً شديد القسوة لهؤلاء، رأى المسلمون في كلمات الرجل رثاء شخص غمره الإعجاب والرغبة تجاه أولئك الذين لم يوجهوا أية أسئلة، بل دافعوا، بإرادتهم عن الإسلام بحياتهم، هذه النظرة تدعمها ردود أفعال مشاهدي قناة الجزيرة وتعليقاتهم حينما عرضت الوصايا الأخيرة المصورة تليفزيونياً لهؤلاء «الانتحاريين». يستبعد الغرب بسرعة مبالغ فيها أن أولئك الشباب قد أصبحوا نماذج تُحتذى لكثير من شباب المسلمين، في حين

أن معظم الهجمات الانتحارية منذ ١١ سبتمبر تنفذ في قلب البلاد العربية، ويعتبر المسلمون منفذها أبطالا سواء كان موقع الأحداث جروزي، تونس، جاكرتا، موسكو، كشمير أو بالي. خاطب بن لادن هؤلاء في أكتوبر ٢٠٠٢ بقوله: إنهم يمثلون جسر التضحيات الذي ستعبره الأمة إلى مرحلة المجد والكرامة والقنطرة التي ستأتي بالسعادة والرحمة للبشرية.

الإحباط الوحيد الذي يُستشعر في خطاب بن لادن يستشف في جهده لحفز مساندة أكبر من المسلمين لأنواع الجهاد غير العسكرية مُذَكِّراً إياهم أن القاعدة لن تستطيع هزيمة الكفار وحدها. وكما أوضحنا، فإن التطوع بين جميع طبقات المسلمين لأعمال التمرد لا يمثل مشكلة طالما استمرت سياسات الولايات المتحدة وما تقوم به إسرائيل تُرى على أنها الوجه المفاير لما يدعو إليه بن لادن. يوجه بن لادن سخطه إلى أفراد الطبقات الوسطى والطبقات الثرية الأكبر سناً وعلماء المسلمين الذين يرى أن عليهم تقديم العون للمجاهدين، لكنهم بدلاً من ذلك يُمالقون الأنظمة المتواطئة مع الكفار، ومن ثم، فهو يرى أن هيمنة العدو هي تبعة لما يفعلونه.

تخاطب وحدة القاعدة الإعلامية المسلمين من خلال أشرطة الشيديو ومقالات الإنترنت. ليس المقصود بذلك الإمداد بالمعلومات لكن إثارة الحماس بين عامة المسلمين، وإلحاق الخزي بالأثرياء لعدم مساندتهم للمجاهدين. ويعتبر ذلك تكتيكاً ممتازاً لأن قوة حافز إلحاق الخزي مازالت فاعلة في البلاد الإسلامية. يلجأ بن لادن أيضاً إلى استخدام الشعر في خطابه إلى الأمة، ووفقاً لما يقوله البروفيسور عيسى بولاطه أستاذ اللغة العربية في جامعة ماكجيل بكندا، فإن وظيفة الشعر في العالم العربي أكثر تأثيراً وانتشاراً منها في الثقافة الغربية، ومن ثم يريد بن لادن أن يوضح أنه قائد مُلم بالثقافة العربية، ويستخدم إحدى

الوسائط التي يقبلها المجتمع التقليدي. فحتى الأميون من المستمعين يفهمون تلك اللغة لأنهم يتلون القرآن كل يوم.

### استهدفوا أمريكا

يمثل مسعى توجيه غضب المسلمين إلى أمريكا أكثر مهمات بن لادن صعوبة، تلك التي لم يحقق فيها كسباً حاسماً بعد. أحد الآثار المرنة لكولنبيالية القرن التاسع عشر الغربية في العالم الإسلامي هي نزوع حركات المقاومة الإسلامية للتركيز على الأنظمة الحاكمة داخل دولها، وهذا توجه يدعمه الأثر الإسلامي الذي مفاده شن الجهاد على العدو القريب أولاً قبل التحول إلى العدو البعيد، ومن ثم يقاوم كل شعب عربي (مصر، الجزائر، اليمن.... إلخ) أنظمتهم الحاكمة، استمر هذا الوضع حتى ظهور بن لادن على المسرح الدولي. عمل بن لادن جاهداً على تحويل بؤرة الهجمة من الدول القومية إلى الولايات المتحدة وقال: إن تلك الأنظمة باقية فقط بسبب دعم الولايات المتحدة لها.

وفي المجال العسكري، تظل هذه المهمة مشروع بن لادن الرئيسي الذي لم يكتمل، كما أن التيار في حركة القاعدة الذي يُحتمل له أن يتراجع إذا هو قُتل أو أُسِر، يعتبر تنظيم القاعدة متعدد الجنسيات والأثنيات إنجازاً هائلاً، ويمزى هذا، إلى حد بعيد، إلى قيادة بن لادن وقدرته على إبقاء كراهية أعضاء القاعدة مركزة على أمريكا. يقول الدكتور عبدالله النفيسي، مدير مركز ابن رشد للدراسات في لندن: إن تركيز بن لادن على أمريكا ظل مفتاح وحدة القاعدة. قال النفيسي في مقابلة له مع الجزيرة في فبراير ٢٠٠٢: إن بساطة هذا الافتراض ومباشرة ربما كان مصدر قوة. ليس ثمة قضايا خلافية داخل القاعدة، في حين أن ثمة قضايا خلافية كثيرة داخل أي تنظيم إسلامي آخر.

في الوقت الحاضر، على الأقل يبدو أن بن لادن يواصل نجاحه في تركيز غضب العالم الإسلامي على الولايات المتحدة. آخر نجاحات بن

لادن في هذا الصدد هو قرار أكثر جماعات التمرد فعالية في الجزائر إعلان الولاء لبن لادن وإعلانها في بيان لها أنها ستركز هجماتها على مصالح الولايات المتحدة. أمدتنا استطلاعات الرأي لمؤسسة Gallup و The Pew Trust والبي بي سي ببصيرة نادرة في كيفية امتزاج كلمات وأفعال الولايات المتحدة، وكلمات وأفعال بن لادن لتأتي بنتيجة في صالح هدف القاعدة بدرجة كبيرة، أي تركيز غضب المسلمين على أمريكا.

وطبقاً لتقرير جالوب فإن الألفاظ التي استخدمت بكثرة لوصف الأمريكيين كانت «القساة، المفرورين، الصلفيين، المتحيزين والذين من السهل استمزازهم». بينت تلك الاستطلاعات أيضاً في مارس ٢٠٠٢ أن ٨٠٪ من الباكستانيين يعتقدون أن الهجمة العسكرية على القاعدة وطلالiban ظالمة. وأن ٨٦٪ من المفاربة و٨٩٪ من الأندونيسيين ٦٠٪ من الكويتيين لهم نفس الآراء. وفي النهاية في يونيو ٢٠٠٢ وجد Pew Elopal Httiuacer Project أن غالبية سبع من بين ثمانى دول إسلامية يخشون الغزو الأمريكي، وأن الشعور المعادى لأمريكا يتعمق بغنف في نيجيريا واندونيسيا. وأنه ليس شمة حد لعدم مؤازرة الولايات المتحدة في العالم الإسلامي. لا يسعنا إزاء هذه الصورة إلا أن تنتهي إلى أن تعليمات بن لادن كانت تُتبع. لقد قال في خريف ٢٠٠٢: إن أولوية الحرب في تلك المرحلة لا بد أن تكون ضد قادة الكفار أي الأمريكيين واليهود الذين لن يوقف عدوانهم وهيمنتهم على المسلمين سوى بالجهاد وأنه لا يجوز تضييع الجهد في معارك جانبية بل يجب التركيز على الضربات ضد هؤلاء حتى يبنهاروا وتتهار معهم كل الأجزاء الأخرى.

### أهمية أفغانستان

تظل أفغانستان، التي سقطت من قائمة المسؤولين الأمريكيين، مركز اهتمامات وأولويات بن لادن. يُغفل الغرب، إلى حد بعيد، عن الود الذي يحمله بن لادن لأفغانستان ودين الشرف الشخصي والواجب الديني

الذى يشعر بن تجاه المُلأ عمر ومطالبان لاستضافته ورفضهم المطالب الأمريكية بتسليمه، أ يوجد من الرجال والمنظمات من هم على استعداد للتخلّى عن مقاليد السلطة فى بلد ما من أجل رجل واحد ومبدأ دينى؟ ورغم ظنون الغرب، فلا يوجد، على أرض الواقع أية أدلة على أن بن لادن لا ينظر إلى المُلأ عمر على أنه القائد المسلم العالمى الأول.

خارج نطاق العرفان بالجميل، فإن بن لادن وقادة إسلاميين آخرين يعتبرون أفغانستان «الدولة الإسلامية الوحيدة فى العالم» وأن المعركة القائمة هناك الآن ضد الولايات المتحدة ستقرر مصير العالم الإسلامى ومن ثمّ فهى إحدى معارك الإسلام الخالدة إحدى العقائد الرئيسية فى استراتيجية القاعدة هى أن على الإسلام الراديكالى أن يمسك بالسلطة فى إحدى البلدان كتمهيد لإسقاط النظم العلمانية فى العالم الإسلامى. ومن ثمّ يعتبر هذا أحد الأسباب لتنفيذ القاعدة هجماتها الإرهابية ودعمها لكثير من حركات التمرد القومية، النقطة الأخرى هى أن حركات التمرد التى تساندها القاعدة تقاتل - دون استثناء - من أجل استعادة أراض كان يحكمها المسلمون ومن ثم تتفق مع تعريف الجهاد الدفاعى. لم أجد حتى الآن أن القاعدة تدعم أى تمرد إسلامى يسعى إلى غزو أراض جديدة هذا رغم مزاعم الإعلام النرى وآخرين كثيرين فى الغرب أن بن لادن يقول بوضوح إن هدفه النهائى هو تقويض الحضارة الغربية برمتها..

ولأسف، فإننا نجد أنه حتى القادة السياسيون فى الغرب ليسوا محصنين ضد هذا الزعم. يصف چاك سترو وزير خارجية بريطانيا هجمة القاعدة فى نوفمبر ٢٠٠٢ ضد منشأتين بريطانيتين فى إسطنبول على أنها «هجمة على حضارتنا برمتها».

لكن، قد يسأل سائل، عن السبب فى أن إحدى أفقر دول العالم على الأرض ومعها أحد الملألى الذى على درجة متواضعة من التعليم. فقد

إحدى عينيه وشوّهت وجهه المارك، يمثلان محوراً مهماً في نظر الإسلاميين؟ والجواب موجود في حوليات التاريخ الإسلامى. منذ أن أكمل البريطانيون تدمير الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤، لم تحل أية دولة محل تركيا كمركز للعالم الإسلامى. بتعبير آخر، يحتاج الإسلام إلى موقع تنطلق منه خلافة جديدة، دولة تحكّمها الشريعة. كتب سيد قطب قائلاً: إن جمال النظام الإسلامى الجديد لا يمكن تقديره إلا إذا اتخذ شكلاً ملموساً. ومن أجل تحقيقه لا بد أن يحدث إحياء في إحدى البلاد الإسلامية تمكنه فيما بعد من الوصول إلى قيادة العالم. وفي عام ١٩٩٧ بين صامويل ب، هنتجتون أن الإسلام يفتقد ما أسماه «دولة مركزية» منذ سقوط العثمانيين ويتجادل هنتجتون قائلاً إن تلك الدولة يمكنها تأدية وظيفتها التنظيرية لأن الدول الأعضاء ستتضرر إليها على ذات رباط قريى ثقافى، وأن الحضارة هي أسرة ممتدة، ومثل الأعضاء الكبار في العائلة، فإن الدول المركزية تمد أقرانها بالدعم والتنظيم، وفيما حاولت دول عديدة القيام بهذا الدور - السعودية، إيران، باكستان، تركيا - لم تصبح أى منها المركز المهيمن مما يعنى أنه لا يوجد بينها من هو في مركز قوى كى يتوسط في الصراعات داخل الإسلام، ولا تستطيع أى منها، وفقاً لهنتجتون، أن تعمل، من منطلق السلطة، نيابة عن الإسلام في معالجة الصراعات بين المجموعات الإسلامية وغير الإسلامية، وفجأة سقطت كابل في يد طالبان عام ١٩٩٦ وأصبحت أفغانستان الدولة الإسلامية أو الإمارة الرسمية تُحكّم وفقاً لمبادئ الشريعة، ومن ثم وجد الإسلاميون أنفسهم وقد امتلكوا الأساسيات التى سعوا إليها منذ وقت طويل. دولة يحكّمها عالمٌ إسلامى يمكن من خلالها إحياء الخلافة الإسلامية، وقد كتب الكثير عن عدم جدارة الملا عمر بتلك المكانة علمياً. فمن الواضح أنه أقل علماءً بكثير من علماء كثيرين في باكستان والسعودية ومصر وأماكن أخرى، لكن الواقع كان هو أن أفغانستان دولة

إسلامية تحكمها الشريعة وقائدها رجل دين خاض حرباً جهادية. ومن ثم، فرغم أن الملا عمر قد لا يكون أفضل رجال الدين علماء، لكنه مؤهل للء الضراع، بما أن الكمال لله وحده. تأكدت هذه الحقيقة بالبيان الذي أرسله عدد من كبار علماء الدين السعوديين عبر الإنترنت إلى «أمير المؤمنين... محمد عمر ومن معه من مجاهدين». هنتوه على انتصار طالبان الذى قسم العالم إلى معسكرين وعبروا عن فخرهم به لانتسابه إلى الأمة لأنه حقق سيادة المؤمنين وشرفهم على أرض الواقع. وقالوا إنهم يشهدون على أنه ومن معه هم وحدهم الذين رفعوا رءوسهم أمام أمريكا.

وأخيراً، تعود أهمية أفغانستان بالنسبة لبن لادن والإسلاميين فى جميع أنحاء العالم إلى أنها كانت موقع النصر الوحيد للمسلمين على الغرب على مدى أكثر من ثمانية قرون. كان لهزيمة الجيش الأحمر، ومازال، قوة عاطفية ورمزية هائلة فى العالم الإسلامى، كما أنها تظل حافظاً فاعلاً لتجديد مقاتلين للقاعدة ولقوات متميزين إسلاميين آخرين. ما فشل الغرب فى استيعابه هو أن صدمة الجهاد المنتصر الأفغانى أحييت عقيدة المسلمين السنة، بأن الله إذا أراد شيئاً فلا بد أن يحدث.

لم يغفل بن لادن عن هذه الحقيقة، فقد رحب بفزو الأمريكين لأفغانستان ليس فقط لأنه جعل الجنود الأمريكين هدفاً سهلاً، لكنه أيضاً لأنه وضع الكفار على تربة البلد الوحيد الذى نجح المسلمون فى الدفاع عنه طوال الأزمنة الحديثة، واستدعى بذلك ذكريات انتصارات الرسول ضد الكفار فى غزوتى بدر والخندق. هنا أيضاً يلعب التاريخ دوراً فاعلاً لأن انتصارات الرسول منذ أكثر من أربعة عشر قرناً مازالت مواضع للإحالة المنتظمة والتعليق فى الخطاب المعاصر العام فى العالم الإسلامى. يشعر المسلمون أنهم يشاركون بأسلوب جمعى وفردى فى

تبعات الأحداث الماضية، بشكل غير موجود في المسيحية (لكنه حاضر في اليهودية).

بين بن لادن بهدوء، وهو يرحب بالقوات الأمريكية، ثقته أن التاريخ يعيد نفسه بإذن الله، أكد بن لادن وهو يصور الحرب على أنها مثال جديد لحرب ريتشارد قلب الأسد الصليبية - تتردى هذه المرة الألوان الحمراء والبيضاء والزرقاء وتحاول سحق جند صلاح الدين الجدد، أكد أن أفغانستان وشعبها يقفون وحدهم وأن الغرب باكملة، باستثناء بلاد قليلة، يدعمون تلك الحرب البربرية الظالمة، حفز بن لادن في خطابه للأفغان مشاعرهم الدينية وكبرياتهم القبلية وكراهيتهم للأجانب، وحاول في آن واحد أن يلحق الخزي بالمسلمين الذين لم يساعدوا الأفغان، ثم عرّف الأفغان بأنهم طلائع جيوش الإسلام ودرعه ضد الولايات المتحدة مثلما كانوا في حالة جهادهم ضد السوفييت.

المكان الهام الذي تحتله الأفغان في مشاعر بن لادن، وأيضاً في خطط القاعدة والإسلاميين الآخرين الإستراتيجية، يؤكد أن المعركة مع الولايات المتحدة للتحكم في البلد، مازالت لم تبدأ بعد بجدية.

### توسيع التيمات وتشخيصها

ظل بن لادن طوال قرابة عقد من الزمان بالغ الدقة في تركيز خطابه على تيمات قليلة واضحة وتحاشى الإضافات الهامة التي قد تجعل رسالته ملتبسة أو تضيف الشرعية على أفعال تشتت قواته العسكرية، تمسك بن لادن بهذه الممارسة منذ هجمات سبتمبر، لكنه تحت ضغط الظروف، أُجبر على تشذيب كثير من تيماته وتوسيعها، تمت تلك التغييرات بأسلوب يحافظ على جوهر رسالته ووضوحها، فيما يتسع أيضاً لمتطلبات الحرب، أخبرت القاعدة المسلمين أيضاً أنهم ربما يرون قريباً بعض العمليات العسكرية التي لا تقع في نطاق أولويات الجماعة المعلنة، الأمر الذي قد يعنى هجمات ليست مركزة مباشرة على الولايات

المتحدة أو تعدياً عليها، كتب أبو أيمن الهاللي في «الأنصار» أن الضرورات الأمنية والسياسية تتطلب الاضطلاع ببعض العمليات التي ربما بدت سلبية كى يستوعبوا قوة العدو وينهكوها، ويدفعوا به إلى حرب استنزاف، تحمى مواقع المجاهدين وتبقى على القضية حية، واعتبر أن هذا السلوك جزء من المهمات المؤقتة التي تهدف إلى إعاقة العدوان وتحافظ على التوازن الاستراتيجى.

### إرخاء اللجام العسكري قليلاً

منذ العامين اللذين أعقبا ١١ سبتمبر وبن لادن يرخى قاعدة الهجوم القصرى على الولايات المتحدة، أتاح ذلك الإبقاء على مقاتلى القاعدة فى حالة نشاط، عسكري فيما يعدُّ بن لادن ومساعدوه للضربة الكبرى الثانية داخل الولايات المتحدة وأيضاً قصد بن لادن من تلك الضربات تحذير حلفاء الولايات المتحدة، خاصة فى أوروبا من أنه لا يوافق على اشتراكهم فى الحرب ضد أفغانستان والعراق وأن للقاعدة القدرة على إلحاق الضرر بهم، لكن مع هذا، فأخّر ما يريد بن لادن فى المجال العسكري هو إيجاد موقف تلحق فيه قوى أوروبية عديدة بالكامل فى حرب الولايات المتحدة ضد القاعدة، وهذا هو السبب الرئيسى فى حدوث هجمة واحدة واسعة المدى فى أوروبا الغربية، أى الهجمة على محطة القطارات فى مدريد فى مارس ٢٠٠٤، قُصد بالهجمة، بالطبع، الإضرار بأسبانيا لاشتراكها فى الحرب على العراق، وأيضاً كانت تحذيراً للحكومات الأوربية أن باستطاعة القاعدة التدخل فى السياسات الانتخابية، يجب النظر إلى هجمة مدريد، بأساليب عديدة، على أنها محاولة بن لادن لإعاقة الأوربيين الغربيين من دعم الولايات المتحدة، وبشكل كلى، فإن أحد الاختبارات الحقيقية للأمية بن لادن ستكون قدرته على إبقاء أوروبا على الخطوط الجانبية قدر الإمكان. فبعد الحماس البدئى لأوروبا لدعم غزو الولايات المتحدة لأفغانستان لتدمير طالبان

والقاعدة أبقى بن لادن على نيرانه العسكرية بعيداً عن الآخرين إلى أن تجمدت الأوضاع في أفغانستان، أي في أواخر مارس ٢٠٠٢، ثم أصدر أوامره بسلسلة من الهجمات التحذيرية لحلفاء أمريكا لا تكفي لجرهم إلى الحرب، وكان بن لادن قد حذر حلفاء الولايات المتحدة في أواخر سبتمبر ٢٠٠١ أن البلاد التي تساعد أمريكا والصهاينة لن تلو من سوى نفسها وأشار إلى اليابان وفرنسا وألمانيا قائلاً: إنها قد تبعت الصفوف خلف الصليب الذي رفعه بوش.

لم يُلق أحد بالا إلى تحذيرات بن لادن وربما أنه كان قد توقع ذلك، أخرج العمليات حتى استقرت الأوضاع لطالبان والقاعدة في أفغانستان، لكنه بعد ذلك وجه ضرباته إلى بلاد تدعم الولايات المتحدة في أفغانستان، ضرب المصالح الفرنسية في كراتشي (مايو ٢٠٠٢)، وعلى شواطئ عدن (أكتوبر ٢٠٠٢) والمصالح الألمانية في تونس (أبريل ٢٠٠٢) وتعد تلك هجمة ضد إسرائيل أيضاً لأن من قتل من السياح كانوا يهوداً ألمانياً، وباكستان (يوليو ٢٠٠٢) وكابول (يونية ٢٠٠٢)، وإسطنبول (نوفمبر ٢٠٠٢)، ثم قتل حوالي مائتي مواطناً استرالياً وبعض البريطانيين في بالي (أكتوبر ٢٠٠٢) وكما أوضحت القاعدة في أكتوبر ٢٠٠٢ فإن تلك الهجمات تحمل رسالة سياسية إلى حلفاء واشنطن في حريها على الأمة الإسلامية، واختتم البيان بمخاطبة الحلفاء كي يراعوا مصالحهم قائلاً: إن الفرصة مازالت متاحة ليعيدوا التفكير في مواقفهم قبل فوات الأوان، تكرر التحذير في فبراير ٢٠٠٢، وأصدرت القاعدة قائمة محددة بعد الحرب على العراق.

من غير المحتمل الآن أن يشن بن لادن هجمات تتعدى الضربات التحذيرية، أي من النوع الذي شُن في ١١ سبتمبر لأن الأحداث التالية أوقعت شقاقاً بين الولايات المتحدة وأوروبا، الجدل في الأمم المتحدة حول الحرب على العراق، وغضب أوروبا من المعاملة التي يلقاها سجناء

جوانتانامو، والنقاش الساخن بين واشنطن وأوروبا بعد الحرب على العراق، كل هذا جعل بن لادن يفصل بين أوروبا وأمريكا، بالإضافة، فقد لاحظ الأوروبيون بالتأكيد أن الهدف الأساسي للقاعدة هو الولايات المتحدة لا أوروبا - وهي رسالة ستعيد التأكيد عليها هجمة مدريد في مارس ٢٠٠٤، وما تلاها من عرض بن لادن الهدنة مع الأوربيين، وكما كتب «مايكل اجناثيف» فقد وسع هذا الهوة بين أوروبا والولايات المتحدة وقال: إنه بعد التعاطف الشديد مع الولايات المتحدة في أعقاب ١١ سبتمبر، استتج الأوربيون أن الولايات المتحدة فقط هي المستهدفة وأن فكرة أن الحضارة الغربية هي الهدف غير مقنعة، لذا، فقد أدركوا أنهم بمساندتهم أمريكا سيصبحون هدفاً ثانيًا.

من ثم، لن يشن بن لادن هجمات كبيرة في أوروبا في المستقبل القريب كي لا يحفز صلحاً عبر/ أطلسى.. وقد شنت القاعدة بالفعل هجمات على بريطانيا وإيطاليا وأسبانيا في تركيا والناصرية ومدريد، من المحتمل أنها ستستمر في شن الهجمات ضد البلدان التي ساعدت الولايات المتحدة في العراق والتحديد أستراليا، اليابان وبولندا، وربما وجهت تلك الهجمات لمصالحها في الشرق الأوسط والمحيط الهادئ، لا أوروبا، وفي حين أنها لن تشن هجمات في عشوائية ضد المسلمين في دول الخليج حيث توجد قواعد للولايات المتحدة فمن غير المستبعد أن تلجأ إلى عمليات الاغتيال.

### الهجوم على الأنظمة المرتبة بأسلوب أكثر مباشرة

كما بينا سابقاً حاول بن لادن تحويل توجهات مجموعات المقاومة الإسلامية من الدول الإسلامية إلى الولايات المتحدة، لكنه لم يحقق نجاحاً كلياً في هذا، لكن، منذ ١١ سبتمبر أصبح ثمة زيادة في التركيز على الدول الشرق الأوسطية «المرتدة» ويدل هذا على مرونته في استغلال الفرص التي أوجدتها الأحداث الدولية مثل الاستجابات

المنبطحة للحكومات على هجمات إسرائيل العسكرية والاعتقالات المستهدفة في فلسطين، ومساندتها غزو العراق، لكنه في نفس الوقت لم يُرْخ تركيز القاعدة العسكري على الولايات المتحدة.

الجائزة التي يطمح إليها بن لادن هي قيادته للعالم الإسلامي، يصير بن لادن، في معركته مع الأنظمة على جعل كلمة الله ورسوله، لا كلمة حكام المسلمين، هي المصدر الحق للقيادة في العالم الإسلامي، ورغم ادعاء حكومات كثيرة أن الشريعة الإسلامية هي مصدر تشريعاتها، لكن منذ ١١ سبتمبر، ظل بن لادن يكتسب شعبية متزايدة بين المسلمين لأنه برهن عملياً على أنه يطبع فريضة الجهاد في مجابهته الشر، وحماية المسلمين ويتحدث ويفعل بما يخدم الإسلام، يمكن القول إنه في العالم الإسلامي اليوم أصبح بن لادن وحده في صفوف الملائكة، وكثيراً ما كرر بن لادن أن القيادة هي حق هؤلاء الذين يتحدثون بكلام الله ويجسدونه في أفعال.

في نظر المسلمين، شهد العامان التاليان لأحداث ١١ سبتمبر عرضاً لا ينافس للعجز الكامل لقيادة المسلمين وأنظمتهم، فعل الإسرائيليون ما حلا لهم في جنين وبيت لحم ورفح، أقاموا مستوطنات أكثر، وبدءوا في إنشاء جدار العزل الذي يضم أراضى فلسطينية أكثر، مازالت الولايات المتحدة في أفغانستان كقوة احتلال وغزت العراق واحتلته وقال بوش عن شارون إنه «رجل سلام»، وأعلنت أمريكا تكراراً تظهما لحق إسرائيل في الدفاع عن نفسها ودعمته، اجتمعت القمم العربية وأعلنت استنكارها لهذا أو ذلك من أفعال إسرائيل وأمريكا وفي النهاية أمدت الأنظمة العربية الولايات المتحدة بالقواعد والمطارات والموانئ، مما جعل غزو أفغانستان والعراق واحتلالهما ممكناً، من ثمَّ يمكن فهم وقع كلمات بن لادن على المسلمين حينما يُعدد المهانات ويذكر العار الذي لحق بأمة الإسلام منذ أن توقفت الناس عن اتباع أوامر الله وسنة رسوله ﷺ.

أتاح هذا المعجز لبن لادن أن يوسع من هجماته على علماء المسلمين ويكتشفها، هؤلاء الذين يعملون في خدمة الأنظمة بدلا من أن يقودوا الإصلاح ويقودوا حركة الجهاد ويخبروا أمتهم بالحقائق.

ومع غياب العلماء الحقيقيين يقول بن لادن: إن على الأفراد من أمثاله تولى القيادة كما فعل علماء المسلمين الأوائل، منذ البداية وقد منحت أحداث الحرب الصليبية ضد الإسلام منذ ١١ سبتمبر بن لادن مجالا أوسع كثيرا للهجوم على علماء الدين هؤلاء المتواطئين مع الحكام.

### استهداف أمريكا: تبرير الإصابات الجماعية

فيما أبقى بن لادن الولايات المتحدة في قمة خطابه منذ ١١ سبتمبر، فقد ركز أيضاً على إعداد العالم الإسلامي لقبول هجمة تتسبب في إصابة أعداد كبيرة من الأمريكيين وقد يُعزى إلى هذا الجهد حقيقة أنه لم تحدث هجمة كبيرة في أمريكا مذاك، وباتجاه تحقيق هدف إعداد المسلمين كره بن لادن تحذيره للأمريكيين أن ثمة هجمة على أمريكا أكبر من تلك التي شُنت في ١١ سبتمبر في سبيلها للإعداد، أيضاً تحدث بن لادن مباشرة إلى الشعب الأمريكي وطلب منهم استخدام نظامهم الديمقراطي للضغط على حكومتهم للتخلي عن سياساتها التي تضر بالعالم الإسلامي، أي أنه يقول لهم: إن مواطني الولايات المتحدة يملكون السلطة لإنهاء الحرب بين أمريكا والإسلام وإنهم لم يستخدموها، وبذا، فهم يستحقون أية كارثة تحيق بهم.

في نوفمبر ٢٠٠١ قال بن لادن: إن القاعدة تدافع عن نفسها ضد الولايات المتحدة وإذا لم يتمتع المسلمون بالأمن فلن يتمتع به الأمريكيون، وبعد عام، ذكر الأمريكيين أن الطريق إلى الأمان يبدأ برفع الظلم وأن على حكومتهم وخلفائها فهم ذلك.

رافقت تحذيرات بن لادن، دعوة محددة منه إلى رئيس الولايات المتحدة وشعبها لاعتناق الإسلام وأنه مستعد لأن يكون مرشدهم ومعلمهم، وهو

يظن بهذا أنه يطبع الحكم القرآني: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾  
وبهذا يبرر هجماتهم «المحتملة» ضد الأمريكيين أمام علماء المسلمين.  
باستطاعة بن لادن أن يضطلع وحده بتحذير الأمريكيين من هجمات  
أكبر ودعوتهم إلى اعتناق الإسلام، لكن الخطوة الأخرى للتمهيد للعالم  
الإسلامي بشن هجمة على الولايات بأسلحة الدمار الشامل تتطلب  
مساعدة علماء دين راسخين محترمين. وحتى مايو عام ٢٠٠٢ لم يكن  
للقاعدة أساس مقنع لتبرير استخدام أسلحة الدمار الشامل إلى أن نشر  
عالم شاب اسمه الشيخ ناصر بن حميد الفهد، في ذلك التاريخ مقالا  
يبرر فيه استخدام تلك الأسلحة ضد الكفار، وكان هذا ما يحتاجه بن  
لادن ولعل أعظم خدمة قدمها هذا المقال لبن لادن هو نقل مناقشة  
موضوع أسلحة الدمار الشامل من مجال السياسيين والمُعلقين  
والأكاديميين والجنرالات والمثقفين المسلمين ووضعها في مجالها  
الصحيح أي الاحتكام إلى (ما يزعم أنه) كلمة الله.

يبدأ الشيخ فهد بأن يصف تعبير «أسلحة الدمار الشامل» بأنه غير  
دقيق ويدعى أن الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنوية التي قد تقتل  
ألف شخص يسميها الغرب «أسلحة محظورة دولياً» في حين أن  
استخدام القنابل شديدة الانفجار التي تزن أكثر من سبعة أطنان وتقتل  
ما يفوق الثلاثة آلاف فرد تسمى «أسلحة مسموح بها دولياً» من ثم يقول  
إن معاهدات منع انتشار أسلحة الدمار الشامل من قبل الغرب الذي  
يملك تلك الأسلحة هي مجرد محاولات لإرعاب الآخرين وحماية  
أنفسهم باحتكارهم لها، ثم ينهى الفهد بحثه بأن الله يأمر المسلمين،  
وفقاً للقرآن بالرد بالمثل على العدوان الموجه ضدهم ومن ثم فعلى  
المسلمين الرد على ما تقترفه أمريكا بهجمات مماثلة، ويذكر أن بعض  
الإخوة يقدرّون عدد من قتل من المسلمين بشكل مباشر أو غير مباشر  
بأسلحة الغرب بمشرة ملايين، ثم يبرر وقوع الضحايا المدنيين في تلك

الهجمات التي يدعو لها إذا كان المقصود بها هزيمة العدو، كما أنه يبرر سقوط ضحايا من المسلمين، الذين حرم الله قتلهم، لأنهم موجودون في كل مكان داخل بلدان الكفار!!

هكذا اكتملت متطلبات بن لادن لإعداد المسلمين لاستخدام أسلحة الدمار الشامل ضد أمريكا، بل تقدمت ميلا إضافيًا، وذلك بأن حول ديمقراطية أمريكا إلى مواطنيتها أنفسهم. قال: إن الكثيرين في الغرب طيبون ومعتدلون وإنه وإخوانه ليسوا معادين للولايات المتحدة وبهذا قلب المقولة الثانية العبيثية المشخصة التي يعشقها الغرب: «نحن نحارب بن لادن لا المسلمين» أو «نحن نحارب صدام لا العراقيين» قلبها ضد الولايات المتحدة بأن أكد للأمريكيين أن الإسلام يخوض حربًا ضد حكومتهم لا ضدهم، ويوضح أنه يعي أن أمريكا ديمقراطية ومن ثم فللناخبين الأمريكيين سلطة تغيير قاداتهم الذين ينفذون سياسة خارجية معادية للإسلام ومن ثم بمقدورهم أن يبتلوا سبب الحرب بين الولايات المتحدة والإسلام، وينهوا خطر هجوم بأسلحة الدمار الشامل التي تتسبب في سقوط ضحايا أمريكيين كثيرين ولأن الأمريكيين لديهم مثل تلك السلطة فليس باستطاعتهم القول: إن القاعدة تهاجم المدنيين وتقتلهم، ويبرر ذلك بأن أفراد الشعب الأمريكي مشاركون في كل جرائم أمريكا، وهكذا يتوسل إليهم أن يستخدموا نظامهم الديمقراطي لإنهاء السياسات التي استوجبت كراهية المسلمين للولايات المتحدة وجهادهم ضدها وأن يلعبوا نفس الدور الذي قاموا به لإنهاء حرب فيتنام.

وعلى حين أن بن لادن سيرحب بانتهاء تلك السياسات وحدثت معارضة للحكومة فهو لا يتوقع هذا أن يحدث، الأخرى أنه يستخدم هذا الخطاب لإقناع المسلمين أنه قد استنفد كل الوسائل لمنع ضرورة استخدام أسلحة الدمار الشامل ضد الأمريكيين.

## نقطة جديدة: بن لادن يستبق استجابة أمريكا

النقطة الأخيرة التي يجب التأكيد عليها هي أن خطاب بن لادن بعد ١١ سبتمبر هو توقع منه لحالة القلق والخوف واسعة الانتشار التي سادت بين الأمريكيين بعد تلك الأحداث، لا يعنى ذلك القول إن بن لادن نبؤى، لكن يعتبر نقطة تؤخذ في الاعتبار مضادة لتقييم المسئولين والمحليين الغربيين له بقولهم إن ما يحفزهم هو فقط الجهل والكراهية وعدم معرفته بكيفية سير الأمور في المجتمعات الحديثة في الغرب والولايات المتحدة ، كتب بول بريمر «لا يوجد ثمة أهمية لمعالجة ما يسمى بجدور أسباب إرهاب بن لادن، إننا نحن تلك الجدور، فهو يكره أمريكا، ولا يجب مجتمعنا يكره ما نمثله ولا يجب قيمنا» قد يكون هذا صحيحاً، لكن كراهيته وشفه الحرب لا علاقة لهما بمجتمعنا، قيمنا أو أفكارنا، فهو يكره سياساتنا وأفعالنا في العالم الإسلامي وليست كراهيته عمياء أو جاهلة فقد استوعب أساليب أمريكا استيعاباً دقيقاً كاملاً بدرجة أنه يستطيع إصدار البيانات التي تهدئ مخاوف المسلمين وتدعيم عقائدهم فيما ينشر القلق والخوف بين الأمريكيين حول ما يستنتهي به الأمر بأمريكا في حريها على القاعدة.

في تلك الخطابات يُطمئن بن لادن المسلمين أنه فيما ستجعل تلك الحرب ظهوره العلني أقل، لكنه سيكون آمناً، وفي نفس الوقت يوحى للأمريكيين أنه في تلك الأثناء سيخطط لنهائيتهم حتى ولو لم يسمموا منه بانتظام، وأنه سيتلقى العون من إعلامهم، وأيضاً، يذكر المسلمين بنفاق الولايات المتحدة ويفرد الصهاينة ويفذى مخاوف الأمريكيين من تنامي سلطة الحكومة الفيدرالية البوليسية ويؤكد على عدم قدرة أمريكا على تحمل ألم الحرب ضد الإسلام.

رغم ذلك لا يُستمع إلى كلماته!

أكد بن لادن في خطابه بعد ١١ سبتمبر أنه لن يتحدث كثيراً أو

يظهر في غالبية الأوقات، وأنه سيهاجم من يعاونون أمريكا وسيشن الحرب ضدهم في العراق وأفغانستان وأماكن أخرى، وسيحفز المسلمين ضدهم وسيهاجم الولايات المتحدة مرة أخرى، وإذا أمكن بأسلحة الدمار الشامل، وسيحاول تدمير اقتصادها، ورغم كونهم أشرارًا فأمرهم لا يعنيه، وكذلك أمر معتقداتهم أو أساليبهم، لكنه سيجبرهم على إنهاء سياساتهم تجاه المسلمين، ويؤكد أنه لن يكل أو يضعف أو تهن عزيمته ولن يتنازل وأنه سيهزمهم بمشيئة الله.

ردد بن لادن مثل تلك الكلمات الخطيرة قبل ١١ سبتمبر لكن أحدًا لم يأبه، يرفض الأمريكيون، وخاصة النخب، استيعاب معانيها التي هي ببساطة أن بلدهم في حرب مع عدو قد حذرهم من كل تحرك أو نية له، تتركنا كلمات بن لادن دون أية ذرائع، أيا كان ما سيحدث، أو ما سيصيبنا، وأطفالنا، وبلدنا من كوارث، فقد تم تحذيرنا منها واخترنا إلا نبذل جهدًا لمحاربتها، لقد تجاهلنا لعامين بل لما يقرب من عشرة أعوام، تحذير ميكافيللي، «لا يجوز أبدًا أن تسمح بمقاطعة (تأجيل) مخططاتك حتى تتلافى الحرب، لأن الحرب لا يمكن تلافيتها هكذا، لكنها تؤجل فقط وفي غير صالحك» لقد انبطحنا وسمحنا، «أن تتقاطع مخططاتنا» سواء كان ذلك في مجالات الدفاع، الإنفاق، السفر، السياسة الخارجية، المسؤولية المالية، الأمن الداخلي أو أمن المواطن كي نتعاشى التضحيات المتطلبية للقتال ضد الحرب التي شنها بن لادن. سيهاجمنا مرة أخرى، بقوة أكبر كثيرًا، وأنداك سنجبر على خوض الحرب التي قد أجلتناها إلى الآن، وفيما تنهض من الأرض لتفعل هذا علينا أن ندعوا أن يكون ميكافيللي قد أخطأ في أحد تحذيراته الأخرى «ومن ثم يحدث أن جميع الأنبياء المسلحين كانوا منتصرين على حين دُمر الأنبياء العزل».

التحذير الذي يقدمه الكاتب لأمريكا لاستنهاض همتها لتحمي نفسها ضد هجمات متوقعة من تنظيم بن لادن، هذا من شأنها، وما أشد

حاجاتنا لنفس التحذير نوجهه إلى جماهير أمتنا لتقف مستيقظة  
لتصد حرب أمريكا والصهيونية الصليبية - ولكن هناك بوش وشارون  
يدافعون بكل شراسة عما يعتقدونه حقاً لهم... ونحن نفرط بكل شراسة  
عما هو حق لنا، ولا فائدة من التحذير، فالقوم موتى، ورائحة الجثث  
تزكم النفوس، وين لادن قد يقع أخيراً ويصلب أو يحرق كما حرقت جان  
دارك، وقتها قد ترفع الجثث الهامدة، الرؤوس لتذرف الدموع.. ثم تعود  
مرة أخرى إلى رقادها الذي قد يطول إلى زمن من غير المتوقع حسابه.

## الفهرس

٧	.....	مقدمة
٢٣	.....	مواجهة العولمة
٤١	.....	فى مواجهة البرجوازية العقنة
٤٧	.....	مقاومة الهيمنة الأمريكية
٦١	.....	التربية والمقاومة
٦٩	.....	المشروع القومى العربى
٨٣	.....	مقاومة التخلف والجهل والجمود
٩٩	.....	فلسفة الكلمات وفلسفة الأفعال
١١٣	.....	فلاسفة المقاومة
١٢٣	.....	لنقف أمام التهديد الأمريكى
١٢٧	.....	ثورة كوبا وظهور جيفارا
١٣٥	.....	الصحة الإسلامية
١٤٩	.....	السلفية المنهجية
١٥٣	.....	السلفية الجهادية فى مقابل النزعة الاستعمارية الغربية
١٥٩	.....	الاستشراق وإعلان الحرب ضد المسلمين
١٦٥	.....	بن لادن الأسطورة

## المؤلف

### د. عبد الحكيم بدران

- بكالوريوس علوم. قسم الكيمياء ١٩٥٧. جامعة القاهرة.
- حاصل على دكتوراة في الكيمياء من جامعة ليون - فرنسا ١٩٦٨.
- منذ حصوله على الدكتوراة قام بالتدريس في كلية العلوم جامعة القاهرة، وفي بعض الجامعات العربية والأجنبية مثل: جامعة الإمارات (الإمارات)، وجامعة مانشستر (إنجلترا).
- ساهم بجهود كبيرة في تطوير المناهج التربوية ونشر الثقافة العلمية في مصر وعلى مستوى الوطن العربي.
- يشارك في العديد من الجمعيات الثقافية والعلمية مثل: نقابة المهن التعليمية، وجمعية التقدم التكنولوجي وله نشاطه الكبير في المجال السياسي والتربوي.
- عمل خبيراً في المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم وفي مؤسسات تعليمية وعلمية أخرى في الوطن العربي.
- أسس عدة مجلات منها: العلم والتقنية، والتدخين والصحة... وراجع العديد من الكتب والمقالات المنشورة في الوطن العربي.
- له أكثر من عشرين كتاباً منها: تشجيع البحث العلمي، الاعلام والتوعية العلمية، أضواء على البيئة، والتنوع الاحيائي، خيانة المثقفين، رسالة إلى العقل العربي.
- نشر له أكثر من ١٥٠ مقالا في الصحف والمجلات العربية منها: عالم الفكر، مجلة العلوم (منظمة التربية والثقافة والعلوم العربية «الكسوة»)، مجلة العربي الكويتية، مجلة سطور.
- يناضل من أجل المشروع القومي، ولا ينتمي إلى أي اتجاه سياسي ويتقبل الرأي الآخر شريطة أن يكون صاحبه مخلصاً منتمياً لوطنه ولأمته.
- يؤمن بأن أزمة التخلف في المجتمعات أزمة ثقافية هي الأسس، وأن النخبة أهم أسبابها؛ وعليه فهو يتوجه الآن بالكتابة إلى الجماهير.

## من قائمة الإصدارات

موسوعة تاريخ حضارات العالم	ترجمة: زينات الصباغ	عامك طريقك إلى صحتك	د. نجدي إبراهيم
تكنولوجيا الحضارات القديمة	مشام كمال عبد الحميد	تعليم الموسيقى والعزف على آلة الألوچ	محمد كريم
صورة العرب والمسلمين في العالم	د. عزة على عزت	كتاب الأسننة (التزاه في مقول الناس) ترجمة هيفصل الهاسرى	
خفايا المستقبل إلى أين تعص البشرية محمد الحديدي		انت وقواك الخفية	د. محمد لطفي حسن
المروية المقترى عليها	د. محمد عبد الشفيغ عيسى	الجنس والشباب النكي كوتن وسون ترجمة أحمد عمر شاهين	
مسارات لمستقبل العربي	د. محمد عبد الشفيغ عيسى	تجارة الجنس جارى جويون	
المخططات اليهودية للسيطرة على العالم	أحمد أنور	صناعة النجوم سكوت لورينل	
السوق الشرق أوسطية	[كرام عبد الرحيم	شهر فضائح القرن العشرين	حسن صابر
عبادة الشيطان على ضفاف النيل	حسين عبد الواحد	أمريكا .. الانهيار السياسي والأخلاقي حسين عبد الواحد	
أسرار الجاسوسية وتعبئة المخابرات	يوسف هلال	بنات إبليس (نساء في مملكة الشر)	حسين عبد الواحد
أسامة بن لادن (رجل ضد الغرب)	شهاب نصار	السحر والجن في عالم التفن	أحمد الجندى
الحرب العالمية الرابعة	ياسر حسين	الناس والجن/ السحر في القرنين/ العلاج بالقرآن/ سمير فراج	
عصر المسيح الدجال	مشام كمال عبد الحميد	الإسلام والجهول (السرور والسحر والشعوذة)	سمير فراج
میں المسيح الدجال بين الفخر والعقيدة	أسامة خيرى	العالم السرى لمنشاهير	
أمريكا تضرب نفسها	محمد فاسم	الامبراطورة فوزية (أولى زوجات شاه إيران)	سمير فراج
أمريكا تطلب العالم لبيعت المطاعة	د. محمد مورو	صورة الرئيس	د. عزة عزت
الشخصية المصرية في الأمثال الشعبية	د. عزة عزت	المختلط الرئيس	سامية صادق
الجريمة السياسية (دراسة مقارنة)	د. أحمد عبد الوهاب	الصيد الرئيس	ترجمة: ماهر البطوطى
الصحافة لشبوها	سيد محمود	هاجس الكتابة	د. أحمد إبراهيم الفقيه
عمرو موسى (للغات السرية)	شهاب نصار	مستحيل الكتابة	د. أحمد الدوسرى
الثورية الفكرية الناصرية		لشرح والأسطورة (دراسة في الثقافة بترجمة) إدوار الخراط	
الناصرية.. رؤية مستقبلية	ندوة	في نور فجر (دراسة في الفن التشكيلى)	إدوار الخراط
الناصرية هل تجايزها الزمن ؟	محمد يوسف	لشهد القصصى	إدوار الخراط
جمال عبد الناصر مشوارهم ونضالهم	صبرى غنيم	القصة والعدالة	إدوار الخراط
جمال عبد الناصر .. أسرار ومواقف	صبرى غنيم	مناجات (١) قولال العمير	ثرىا نافع
الانترنت عالم متغير	م. أشرف صلاح الدين	مناجات (٢) فى الطريرة	ثرىا نافع
التجارة الإلكترونية	د. إيهاب أحمد عبد الرحمن	أثر الإسلام في الأدب الإسرائيلى ترجمة د. حامد أبو حمد و..	
الاستنساخ والبحث عن المخلود	د. أميمة خفاجى	علامات العمل المرصى ترجمة: د. خالد إبراهيم سالم	
التشريع الجمالى	د. محمد محمد المفتى	أنتى النص (مقالات في الأدب فتوى) سمد الدين خضر	
الإبر الصينية في العلاج والتخدير	د. لطفي سليمان	إشكالية للمصطلح الغربى فى ثقافتنا المعاصرة د. سمير حجازى	
الأعشاب الطبية	د. موسى الخطيب	الجواهر والأحجار الكريمة	د. عادل الأنوسى

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ، رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد  
وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .  
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء بيتنا المركز